

مطلع النور

لـ

طويع البعث للتحديث

تأليف

عباس محمود العقاد



Bibliotheca Alexandrina



0115192

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفيحة - القاهرة



مَطْلَعُ النُّورِ

أَوْ

طَوَالِجُ الْبَعَثَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ

تَأْلِيفُ

عَبَّاسِ مُحَمَّدٍ الْعَقَّادِ

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الجميلة - القاهرة

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية - بعثة محمد عليه السلام - وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضي إليها .

ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها . وعلاج لأسبابها وعواقبها .

مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت . فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة في طبائع الأشياء .

ومقدمات من قبيل يأتي بعده الدواء . فليس هو بنتيجة له إلا على معنى واحد . وهو لحاق الدواء بالداء . وظهور الشفاء بعد الحاجة إليه .

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة

ومقدمات تتحقق بها عناية الله

ولاسيما حين تأتي الحاجة إلى الشفاء من غير المريض ، بل تأتي على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه .

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوجدانية بالشرك واختلاط الأديان
بين الآلهة والأوثان؟

كيف نشأت ديانة الإنسانية بعد ديانات العصبية والأثرة القومية؟
كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للإيمان بعد أن كان الإيمان تابعا
للمعجزة؟

كيف ظهر الإسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها مقدمات لم
تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها . وإن مهدت لها خطوة في الطريق فقد
تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات

وهذه هي المقدمة التي لا تأتي بعدها النتائج الصالحة إلا بعناية من
الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث يشاء

فليست الجاهلية مقدمة للإسلام

وليس الفساد في العالم سبباً للصالح

وليس قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة
الأكاسرة هي التي بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ، ويعلم العرب
تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التي قام
عليها الطغاه وتأله عليها الجبابة من دون الله

هؤلاء جميعا كانوا صحبة البعثة المحمدية
وهؤلاء جميعا كانوا مريضها الذي شفى على يديها بغير شعور منه
نمرض وبغير سعى إلى الشفاء

وتلك هى المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله

رسول يوحى إليه فيصنع الأعاجيب
ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله

فإذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه . فلا
تفسير له عندهم إلا أن الفساد يصلح الفساد ، وأن الداء يشفى الداء .
وأن الأسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب إلى حيث لا
يفضى الذهاب

جاء محمد بدين الإنسانية فى أمة العصبية
جاء ينكر كل اله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل اله غير
الواحد الأحد ، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة
وكل مقام

أحمد وحده يقدر على ذلك ؟
أحمد يقدر عليه بعناية من الله ؟
أدنى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الإيمان ، وأناهما عن
الصواب أناهما عن الله

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة لتخرج
بالتاريخ الإنسانى كله إلى عالم جديد

وسرى فيما يلى من هذه الصفحات كيف تتناقض النتائج والمقدمات
فلا تستقيم إلا بمقدمة واحدة ، وهى رسالة النبوة وعناية الله

وسنبداً بالمقدمات من طوابع الغيب في تأويل المتأولين إلى وقائع
الحس والعيان في أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة ، وأحوال الأسرة ،
وأحوال البيت الذي طلع منه نور النبوة ، وبرز منه فجر التاريخ
الجديد في كل ما حوله ، وتحققت به عناية الله
ونرجو في نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة
الفكرة وبديهة الإيمان
وعلى بركة الله

الطوائع والنبوءات

على بركة الله نمضى فى سرد المقدمات التى سبقت البعثة المحمدية

بنوعها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث ارتباط الأسباب بالمسببات

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تناقضها

وتؤدى إلى خلافها ، وأنما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلّة بما

يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات ، بل هى العلاج الذى

يزيلها والآية التى تحول الأسباب الطبيعية إلى طريق الحكمة الأبدية التى

تكشف أوائلها من خواتيمها ، خلافا للعرف الشائع من دلالة الأوائل

على الخواتيم

ورائدنا فى متابعة هذه المقدمات بنوعها أن ننظر فى الآيات الكونية

والمعانى التاريخية ، لأنها ولا شك عنوان إرادة الله المتصرف فى الكون

كله ، ولأنها - على هذا - مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل

بفريضة الإسلام الكبرى وهى التفكير فى ملك الله والنظر بالعقل فى

حقائق السماوات والأرضين

رائدنا فى البحث عن مقدمات الدعوة النبوية أن إرادة الله ظاهرة فى

ملكه وآيات خلقه ، وإن الناس مطالبون بالنظر فى هذه الإرادة قبل

النظر فى المعجزات والخوارق التى لا تأتى فى كل حين ولا تخص المؤمنين

دون سائر المصدقين بالحس والعيان

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على إمكانها أو استحالتها ، فليست المعجزات بالقياس إلى قدرة الله خالق الكون إلا كالمألوفات التي تجري بها العادات في كل يوم ، فإذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذي خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتي بالمعجزات كما يأتي بالمنظور والمطرود من النواميس والعادات ، وعقيدتنا في ذلك عقيدة الإمام الغزالي رضى الله عنه حيث قال غير مرة إن الحوادث تجري عند حصول الأسباب ولا تجري بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا إرادتها ولكن المادة وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الإلهية التي تسخر كل شيء بمقدار

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فإن العقل الذي يقول إن المادة لا توجد إلا هكذا أضيق من العقول التي تصدق كل شيء بغير بحث ولا برهان

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟ هل كان لها أثر مشهود في الإقناع بالدعوة كما ينبغي لكل معجزة ، أو كانت في تاريخ الدعوة عملا بغير أثر ولغير ضرورة ؟

ذلك أن الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة ، وتعالى الله عن العبث في غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف مألوفهم ومجرى العادات أمامهم كل يوم

وقد أشرنا إلى ذلك في كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا إن « علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة ، وهي أسباب

تمهّد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها . فإذا تجمعت هذه العلامات فإذا يلجئنا إلى علامة ؟ وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، وإلا فلأى شىء خلق ؟ ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سوق التجار والشراة . ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال ، ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد . فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها . وما من أحد قد أعد فى هذ الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد

وقلنا عن بشائر الرسالة المحمدية إن المؤرخين « يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما أكدته الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه . وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهووى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة . فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام ؟

« لا موضع هنا لاختلاف .

« فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبی بالرسالة ، أو كان ثبوت الإسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه . وقد ولد مع النبی عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها . فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين ، يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين . أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهى علامة الكون أو علامة التاريخ . قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة . ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . . »

* * *

على هذا المحك البسيط نعرف أخبار الخوارق والمألوفات فى تاريخ ندعات النبوة . وينبغى أن نقرر فى هذا المقام - لأنه مقامه الذى يذكر فيه - أن المؤرخ المسلم الذى يكتفى بالآيات الكونية إنما يختار الطريق لأنه طريق واضح المعالم امامه وامام الناظرين الذين يعملون بهداية الإسلام فى تدبير الآيات والبحث عن الحقائق الموجودة ، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التى يعتمد أتباع الأديان

المختلفة على أمثالها ، وقد يعز عليهم أن يجدوا امثالها في المصادر التي يؤمنون بها ولا يشكون ، فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التي يثوب إليها - لو شاء - كما يثوب غيره ، وإنما يعتمد توثيقا للبيئة وإثارة لأفضل الحسنيين في مقام المقابلة بين المتشابهات

ومن الحسن أن تأتي على أمثلة من الطوابع والنبوءات التي وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبي عليه السلام مكتوبة قبل أو أن ظهوره بعشرات القرون ونلاحظ أن هؤلاء المؤرخين ، أو أكثرهم . من فضلاء الهند وفارس والأرم الشرقية التي تتكلم غير العربية ، وصر ذلك أنهم ورثوا في بلادهم طوابع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوابع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الإتيان بنظائرها التي تقابلها في كفة الديانة الإسلامية . فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المائل ولا يعيهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويا أوراجحاً في الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التي يستدعيها المقام ولا يجوز إهمالها في تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الإجمال

من هذه الكتب كتاب باللغة الإنجليزية ألفه « مولانا عبد الحق فديارتى » وسماه محمد في الأسفار الدينية العالمية » واستفاد من مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة . وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع

أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة . ولا نذكر أننا اطلعنا على شاهد أقوى منها في روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية

ويقول الأستاذ عبد الحق إن اسم الرسول العربي « أحمد » مكتوب بلفظه العربي في السامافيدا (Sama Veda) من كتب البراهمة . وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها أن « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس »

ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهمنين . بل ينقل عن أحدهم (سينا أشاريا) Syna Acharya أنه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهي « أهم » و « آت » و « هي » . . وحاول أن يجعلها تفيد « أننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى » . قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه أن العبارة منسوبة إلى البرهمنى « فإترا كانفا » Kanva من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو وحده تلقى الحكمة من أبيه

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت في كتاب الآثارفا فيدا Atharva Veda حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة وهي باب إبراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبي

وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم . ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتحى الجبال وهى فى قوله جبل خليج وجبل قيقعان وجبل هندى وجبل لعلع وجبل كدا وجبل أبى حديدة وجبل أبى قبيس وجبل عمر ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهمنين لمعنى البيت هنا بأنه جسم الإنسان ومنافذه ولا يذكره لأنه على ما يظهر يخالف القداسة الروحية فى البرهمنية . ولا يأتي بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمنية يرى المؤلف أن النبى محمدا مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة . ومن أسمائه اليرصفية اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتابه الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة « العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين » وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه .

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهاها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة إلى جانب النبوءة مما يغنى المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوءة عن الرسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيان » Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu . ويدعو إلى إله واحد لم

يكن له كفؤاً أحد (هيج جيز باونمار) وليس له أول ولا آخر ولا ضرنع
ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا
مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة

« جز آخاز وانجام انباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادروزن وفرزند
وحای سوی وتن آسا وتنانی ورنک وبوی است »

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام :
أحد صمد ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ولم
يتخذ صاحبة ولا ولداً

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية تنبئ عن دعوة
الحق التي يجيء بها النبي الموعود وفيها إشارة إلى البادية العربية ، ويترجم
نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية معناها بغير تصرف « أن أمة زردشت حين
ينبذون دينهم يتعضعون وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه
فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون
وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون
وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ،
وهي الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وأن نبيهم ليكون
فصيحاً يتحدث بالمعجزات » (١)

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب
العهد القديم والعهد الجديد فقال إن النبي عليه السلام هو المقصود بما

جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء وأشرق ضم من سعير وتلاًلاً من جبل فاران واتي من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم » .

وجاء بالنص العبري كما يلي :

« ويومر بهووه مسينائي به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران واتا مر بيوث قودش ميمفو ايش داث لامو » .

فترجمه هكذا : « وقال أن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران جاء مع عشرة آلاف قديس ، وخرج من يمينه نار شريعة لهم »

وقال إن الشواهد القديمة جميعاً تنبئ عن وجود فاران في مكة . وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبوس Eusebius « ان فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة ايام إلى الشرق من ايلة »

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٥١ أن «سما عيل» سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر ، ثم قال إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ جاء فيه أن بنى إسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء ، فحلت السحابة في برية فاران » . . . ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء فيقال إن جبل فاران واقع إلى غربها . وفي الأصحاح الثالث من كتاب حبقوق أن « الله جاء من تيمان والقُدوس من جبل فاران » فهو إذن إلى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذي تقع فيه اليمن مرادفها بالعربية . ولم يتحدث

قط أن نبياً سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبی محمد عليه السلام .
وقوديش ترجم بقديس في رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها
بالملائكة فى الترجمات الأخيرة . كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء
بشريعة بعد موسى الكليم . فقول موسى الكليم « إن نبيا مثلى سيقم لكم
الرب إلهكم من إخوانكم أبناء إبراهيم » يصدق على نبي من أبناء إبراهيم
تقدمه فى الزمن . ويرجح المؤلف أن المدينة التى تعلم فيها موسى عليه
السلام فى صحبة يثرون - أى شعيب - لم تكن هى مديان الأولى التى
تخربت بالزلزال كما جاء فى القرآن الكريم ، ولكنها كانت «مدينة»
الحجاز التى سميت يثرب على اسم يثرون ، ومما يعزز ذلك أن بطليموس
الجغرافى يقول بوجود موضوعين باسم مديان وإن كان قد اخطأ على رأى
المؤلف فى تعيين الموضوعين . وقد جاء فى سفر التكوين أن مديان بن
إبراهيم الذى سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار ، وهو الذى
يقول نوبل Knobel شارح التوراة أن ذريته كانت تنزل فى عهد البعثة
الإسلامية إلى جوار يثرب . ولعل موسى تلقى اسمه فى ذلك الجوار . إذ
كانت تسميته العربية أرجح من تسميه المصرية أو العبرية . فإن ابنة
فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير
المولودين العبريين ، وصحيح أن كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها
الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لا يرضون لنبيهم
ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارا من المصريين

ومن الجامعات التي عنت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمديّة الهندية التي ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزيّة ، فإنها أفردت للنبوءات والطوابع عن ظهور محمد عليه السلام بحثاً مسهباً في مقدمة الترجمة شرحت فيه بعض ما تقدم شرحاً مستفيضاً وزادت عليه نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء : وهي التجلي من سيناء وقد حصل في زمانه والتجلي من سعيّر أو جبل الشعر وقد تجلّى في زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل - على قول الجماعة الأحمديّة - واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر ، وأما التجلي الثالث فن أرض فاران وهي أرض التلال التي بين المدينة ومكة ، وقد جاء في كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يجيئون الحجاج في تلك الأرض بالرياحين من « برة فاران » . . وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما جاء في وعد إبراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان . ولا وجه لإنكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون إلى إسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من بيت سيدها . وقد جاء في التوراة أسماء ذرية إسماعيل الذين عاشوا في بلاد العرب . وأولهم نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش . الذي يقرر الشارح كاتربيكاري Katripikari إنه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب ، ويقرر بطليموس وبليني أن أبناء قدور - قيدر الابن الثاني لإسماعيل - قد سكنوا الحجاز . ويضيف المؤرخ اليهودي يوسفوس إليهم أبناء أدليل الابن الثالث في ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة إلى البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر إخوانهم الباقين فإن الأماكن التي تنسب إليهم لا تزال معروفة بأسمائها إلى الآن . ومن

نبوءة أشعيا التي سبقت مولد السيد المسيح بسبعائة سنة يظهر جليا أن أبناء إسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز . ففي هذه النبوءة يقول النبي أشعيا من الأصحاح الحادى والعشرين : « وحى من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء . . وافوا الخارب بنخزه فإنهم من امام السيوف قد هربوا . من امام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب . فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار »

ويعود المفسرون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبي الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير

ويقرون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الأصحاح الخامس فى سفر أشعيا يقول فيها : « ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون . . ليس فيهم رازح ولا عاثر ، ولا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم . سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة . حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة . . »

وهذه النبوءة عن رسول يأتى من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الإسلام

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الإصحاح الثامن فى سفر أشعيا جاء فيها أن الرب أنذره ألا يسلك فى طريق هذا الشعب قائلا : « لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه

ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبني إسرائيل وفخا وشركا لسكان أورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويلقون فيلقطون . . صر الشهادة . أختم الشريعة بتلاميذي . فاصطبر للرب السائر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره »

فهذه النبوة عن رسول الله الذي يختم الشريعة تصدق على نبي الإسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده .

وتلحق بهذه النبوة أيضا نبوة من الأصحاح التاسع عشر في سفر أشعيا يذكر فيها إيمان مصر بالرسول المنتظر « وفي ذلك اليوم يكون مذبح للرب في وسط أرض مصر وعمود الرب عند تخمها ، فيكون علامة وشهادة لرب الجنود في أرض مصر لأنهم يصرخون للرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقدهم فيعرف الرب في مصر ويعرف المصريون الرب في ذلك اليوم فيقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب ويعرفون به ويضرب الرب مصر ضربا فشافيا فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم . في ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى أشور فيجىء الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور ويعبد المصريون مع الأشوريين في ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالثا لمصر ولأشور بركة في الأرض ، بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبي مصر وعمل يدي أشور وميراثي إسرائيل »

فالذي حدث عن قدوم أهل العراق إلى مصر وذهاب أهل مصر إلى العراق إنما حدث في ظل الدعوة الإسلامية ولم تتوحد العبادة بينهم قبل

تلك الدعوة . وأن النبوة ستم غدا على غير ما يهواه بنو إسرائيل . إذ تكون البركة لمصر وأشور ولا تكون إسرائيل إلا لاحقة بكلتا الأمتين

❖ ❖ ❖

ثم ينتقلون بالنبوءات إلى سفر دانيال حيث جاء في الأصحاح الثاني : « أنت أيها الملك كنت تنتظر وإذا بتمثال عظيم . هذا التمثال العظيم الهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، وصدره وذراعا من فضة . وبطنه وفخذ من نحاس . وساقاه من حديد ، وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خرف . كنت تنتظر إلى أن قطع حجر بغير يدين ف ضرب التمثال على قدميه اللتين من الحديد وخرف فسحقها . فانسحق حينئذ الحديد والخرف والفضة والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافاة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها »

وبلى ذلك تفسير النبی دنیال لهذا الحلم إذا يقول : « أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليديك وسلطها عليك جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب وبعده تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتنسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد يدق ويسحق كل شيء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خرف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها

قوة كالحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصيا ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذلك كما أن الحديد لا يلتصق بالخزف ، وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . . الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين «

وتعود الجماعة الأحمدية إلى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبي دنيال لتلك الرؤيا . فن كلام النبي دنيال يفهم أن الرأس الذهبي هو ملك بابل ، وأن الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس وميدية التي ارتفعت بعد دولة بابل ، وأن الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الإغريقية في ظل الإسكندر لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وأن القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانية التي ارتفعت بعد ذهاب ملك الإسكندر ، وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الأخيرة أن قدما من قدميها خزف والأخرى حديد ، وهو وصف يشير إلى جزء من الدولة في القارة الأوروبية وجزء منها في القارة الآسيوية ، فالقدم الحديد هي سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستولى على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوي على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة في وشك انحلال الدولة الرومانية في السنوات الأخيرة لهذا السب .

وتستطرد من ثم إلى أمور أهم وخطر إذ تقول : « إنك كنت تنظر إلى أن قطع الحجر بغير يدين فحضر التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقها . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافه البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها . . »

تقول الجماعة : « فهذه نبوءة بظهور الإسلام . فقد اصطدم الإسلام في صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الإغريق الإسكندري فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل ، ثم ضربتها قوة الإسلام فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافه البيدر في الصيف ، وهكذا ينسحق ترتيب الحوادث وتعبيرها في رؤيا دنيا أنباء لاريب في معناه . إذ كنا نعلم أن بابل خلفتها فارس وميدية وأن سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الإسكندر . وأن ملك الإسكندر خلفته الدولة الرومانية التي إقامت من عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوروية اسيوية . ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الإسلامى وغزوات النبى والصحابه »

وهذا الحجر الذى جاء في رؤيا دنيا يذكره أشعيا والحوارى متى ، ففي الأصحاح الثامن من سفر أشعيا أنه « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتى إسرائيل ، وفخا وشركا لسكان أورشلهم ، ويعبر بها كثيرون ويسقطون ويلقون فيلقطون »

وفي الأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى يقول : « لذلك

أقول لك إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترفض ومن سقط هو عليه يسحقه »

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة إذ يقول : « ان الحجر الذى رفضه البناءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية »

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى المتقدم أن هذه النبوءة تنبئ عن زمن غير زمن السيد المسيح ، إذ يقول عليه السلام : « أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية . فمن قبل الرب كان هذا هو عجيب من أعيننا »

ثم تفضى النبوءة - نبوءة النبى دنيال - إلى عقابها فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملا الأرض كلها . فإن هذا الذى حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية . فإن الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة العالم المعمور كله فى ذلك العصر ، وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى أيدي أتباع محمد ألف سنة

ثم تم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد ، ويستشهد جماعة الأحمديّة بالأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلاً آخر . كان إنسان رب بيت غرس كرما وإحاطه بسياج وحفر فيها معصرة وبنى برجاً وسلمه إلى الكرامين وسافر ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم أرسل إليه أبنه أخيراً قائلاً إنهم يهابون ابنى . فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما

بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فتي جاء صاحب الكرم فإذا يفعل بأولئك الكرامين ؟ قالوا له أنه يهلك أولئك الأعداء هلاكا رديئا ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها . . قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب أن الحجر الذي رفضه البنّاءون قد صار رأس الزاوية ؟ . . من قبل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا . . لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم ، وإذا كانوا يريدون أن يسكوه خافوا من الجموع لأنه عندهم مثل نبي »

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون إن السيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمعين . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح في دنياه ، والثمرات التي يريد صاحب الكرم أن يحصلها هي ثمرات الفضيلة والخير والتقوى ، والخدم الموفدون من صاحب الكرم إلى الكرامين هم الرسل والأنبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم إلى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالبركة مع أمة إسحاق ، وهي أمة إسماعيل ونيبها العظيم محمد عليه السلام ، وهو الذي يصدق عليه وعلى قومه أنهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رصه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض .

وتتلو هذه النبوءة في إنجيل متى نبوءة متممة من الإنجيل نفسه حيث جاء في الإصحاح الثالث والعشرين منه خطاباً لبني إسرائيل « هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً ، لأنى أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » .

وفى الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاذيين « إذ سألوه من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر وقال إني لست المسيح . فسألوه : إذن ماذا ؟ أنت إيليا ؟ فقال لا . قالوا : أنت النبى ؟ فأجاب : لا فقالوا له : من أنت لتعطى جواباً للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : أنا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبى » .

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقول إنها كانت ثلاثاً فى عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الأسئلة والأجوبة : نبوءة عن عودة السيد المسيح ، ونبوءة عن نبى موعود غير إيليا والسيد المسيح .

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء فى الأصحاح الحادى عشر من إنجيل متى : « أن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا ، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا - أى يحيى المغتسل هو إيليا المزمع أن يأتى » .

وواضح من الأصحاح الأول من إنجيل لوقا أن الملك بشر زكريا بأن امرأته ستلد له ولداً وتسميه يوحنا . « وأنه يكون عظيماً أمام الرب لا يشرب خمرًا ولا مسكراً ويمتلئ من بطن أمه بالروح القدس ويرد

كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم ، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء » .

وفي الأصحاح التاسع من إنجيل مرقس يقول السيد المسيح : « إن إيليا أيضاً قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه » .

ويتكرر ذلك في إنجيل متى إذ يقول : « إن إيليا قد جاء ولم يعرفوا بل عملوا به كل ما أرادوا » .

فالنبي إيليا قد تقدم إذن في عصر الميلاد ، وقد جاء فيه المسيح أيضاً ثم بقى النبي الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح نبي صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح في الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا بين للتلاميذ « أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة . فأما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبي ولا تروننى أيضاً ، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين ، وأن لدى أموراً كثيرة أقولها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن ، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كان ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية . ذاك يجدننى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم . وكل ما للأب فهو لى . لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ويخبركم وبعد قليل لا تبصروننى . . » .

وقد جاء نبي الإسلام ممجدا للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لأنها رسالة الله .

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختتم الجماعة الأحمدية بحجها بالإشارة إلى ما جاء في الأصحاح الثالث من أعمال الرسل الذى ينبئ عن تتابع النبوءات من صمويل إلى السيد المسيح بظهور نبي كموسى الكلم صاحب شريعة يحقق الوعد لأبناء إبراهيم ويبارك جميع قبائل الأرض ، ويكون هذا النبي من إخوة نبي إسرائيل لا منهم . فهو من ذرية إسماعيل لا من ذرية إسحاق .

* * *

إن أبناء الهند وأبناء فارس - كما قدمنا - قد توفروا على هذا الدأب فى استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقابلة بين المضامين والتأويلات وإتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة فى شتى المصادر والروايات ، ولكنهم لم ينفردوا بالبحث فى هذه النبوءات وهذه الطوالع خاصة وجاراهم فيها الباحثون من سائر الأمم واجتمعت فى كتاب « فتح الملك العلام فى بشائر دين الإسلام »^(١) متفرقات لم ترد فيها أسلفنا من البحوث الهندية ، أو وردت عن منهج غير منهجها ، تلخص بعضه فيما يلى ولا نستقصيه لأنه يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة .

ويعتمد المؤلفان على الأصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين إذ جاء فيه أن أبناء إسماعيل سكنوا « من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور » فهم إذن سكان الحجاز لأن الحجاز هو الأرض التى بين أشور وحويلة إذ كانت حويلة فى اليمن كما جاء فى الأصحاح العاشر « إن يقطان ولد الموداد ، وشالف ، وحضر موت ، وبارح ،

(١) المؤلفيه الاستاذين أحمد ترجان ومحمد حبيب .

وهـد ، ورام ، وأوزال ، ودقـلة ، وعوبال ، وابـيابل ، وشبا ، وأوفـير .
 وحويـلة ، ويوباب - جميع هؤلاء بنو يقطان « سكان الأرض اليمانية .
 ويعتمدان كذلك على وعد إبراهيم الخليل في سفر التكوين « لأنه
 بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه
 نسلك » . . وإنما شرط الوعد لأبناء إسحاق باتباع وصايا الرب وألا
 يعبدوا إلها غيره وإلا فهم يبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة كما جاء في
 الأصحاح الحادى عشر من سفر التثنية . وقد عبد القوم أربابا غير الله
 واتخذوا الأصنام والأوثان كما جاء في مواضع كثيرة من كتب العهد
 القديم .

ومما اعتمد عليه المؤلفان رؤيا النـبي دنـيال .

وفي الأصحاح التاسع منها يقول : « سبعون أسبوعاً مقضية على
 شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكـمـيل المعصية وتتمـم الخطايا ولكفارة
 الأثم وليؤتى بالبر الأبدى ولتـمـ الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القديسين ،
 فأعلم وأفهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح
 الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً يعود ويبنى سوق وخليج في
 ضيق الأزمنة ، وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح . وشعب رئيس
 آت يخرب المدينة والقدس وانتهأؤه بغارة ، وإلى النهاية حرب
 وخراب . . وعلى جناح الأرجاس » .

وهذه الحاتمة هى التى تم كما جاء في سفر أشعيا « على يد شعب بعيد
 من أقصى الأرض » أو كما جاء في سفر التثنية « أن الرب يجلب أمة من
 بعيد من أقصى الأرض . . ثم يردهم إلى مصر فى سفن »

وقد تم ذلك حين استدعى الرومان حاكم بريطانيا الكبرى ومعه جيش نكل باليهود وحمل طائفة منهم أسرى إلى مصر وطائفة إلى رومة من طريق البحر سنة ١٣٢ . فلم تنته حرب الرومان سنة ٧٠ ميلادية بل جاءت بعدها تلك الحرب التالية مصدقة لنبوءة الدمار على يد القادم من بعيد ونبوءة النقل على السفن إلى الديار المصرية وما وراءها

يقول المؤلفان ، ويعتمدان في ذلك على إجماع الشراح ، أن اليوم من أسابيع دنيال سنة ، وأنا إذا اضعفنا أربعائة وتسعين سنة إلى سنة ١٣٢ فتلك سنة ٦٢٢ التي هاجر فيها النبي عليه السلام إلى مدينة يثرب ، وبعد أربع عشرة سنة دخل جيش الإسلام القدس الشريف وبني المسجد الأقصى في مكان الهيكل ، وكان الفرس قد ملكوا فلسطين أربع عشرة سنة أباحوا فيها لليهود إقامة شعائرهم ثم عاد الرومان وتلاههم المسلمون . فكانت السنون التي مضت بعد الهجرة النبوية مقابلة لتلك السنين التي ارتفع فيها الحجر عن اليهود على عهد الدولة الفارسية

* * *

هذه العلامات إنما هي نماذج لإضعاف أضعافها لم نحصرها لأنها تستغرق مئات الصفحات ولا يلزمنا حصرها جميعا لأن الأمثلة المتقدمة تكفي للتعريف بها وإن لم تجمعها بخذافيرها ونحن أمام هذه البحوث المستفيضة نتوخى فيها الحد الوسط بين الفضول وهو جمع هذه البحوث كلها في هذه الرسالة التي لا تتوقف على العلم ببحوث العلامات والطوالع جميعا وبين النقص وهو إهمال هذه البحوث كل الإهمال في رسالة تدور على بيان مقدمات النبوة الإسلامية وعلى الآراء المختلفة في شرح ما سبقها

من هذه المقدمات ، ومهما يكن من رأى القارئ فى هذا العصر فالرأى الذى رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لابد أن يكون له مكانه التاريخى ودلالته النفسية فى هذا السياق

ولسنا هنا بصدد الإسهاب والتفصيل فى نقد الأساليب التى يعتمدها الباحثون فى حل الرموز أو خلق هذه الرموز على الأصح فى بعض الأحيان ، لكننا نوجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لا يطول عليه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية فى كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام إلى يومنا هذا يرى ولاشك أن العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافا واستكراها للألفاظ والتراكيب على غير معانيها ، وإنما نظر إليها على كل احتمال مفروض فلا نرى أنها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعلم أن قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالإسلام فى الزمن الحديث

فإذا فرضنا أن التخريج صحيح فى كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فإن هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين كانوا يقرءون التوراة فى عهد الدعوة المحمدية ولم نعلم لهم موقفا من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد فى الإنكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم . وإذا قدرنا أن هذه العلامات لم ترد قط فى كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصددها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الإقناع والذبوع التى اعتمدت عليها .

هذا على تقدير الصحة والصواب في كل تخريج وفي كل علامة
مذكورة مشروحة ، فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا إذن إلى
تعقيب طويل أو قصير

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيها الرأى الذى
يسلمه المنصفون ولا يجرؤ أحد على إنكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو
باسم القياس الصحيح

فما من أحد يجرؤ على أن يقول - باسم العلم - إن الإلهام بالغيب
مستحيل . لأنه إذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور
كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقرها معتمدا على حجة أو سند قويم
يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الإلهام بالغيب أن يقرر لنا أنه
عرف حقيقة الزمن وعرف - من ثم - حقيقة المستقبل ، ويجب عليه مع
ذلك أن يقرر تجريد السكون من عنصر العقل غير عقل الإنسان والحيوان
فما هى حقيقة الزمن ؟ هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل
أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟ وما هى هذه اللحظة الواحدة ؟ وما
مدى إحاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان ؟
وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف
يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود ؟

إن العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على
العلم كذبا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق

فإذا كنا لا ننم وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا إلى حجة أو
بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل فى باب المنوعات أو غير
المعقولات

وإذا كان عنصر العقل في هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول . ولا ندعى أن الانتقال الفكري بين عقول الناس قد ثبت في هذا الزمن ثبوتاً قاطعاً في جميع التجارب والمحاولات . فإن هذا الانتقال - المسمى بالتبائية - يصيب ويخطئ ويكفى أنه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحددين والماديين إلى جانب المتدينين والمؤمنين

فإذا كان وجود المستقبل لم يبطل فكيف يبطل العلم بما يجري فيه ؟ إنه قد يبطل إذا تحقق بالبيئة أن عنصر العقل وراء عقل الإنسان مستحيل ، فإذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع ولم يدخل في باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بإنكار الغيب وإنكار العلم به أو الإجماع به إلى إنسان من الناس فإنما هي دعوى تهجم على الواقع ولا يكتفى أن يقال فيها إنها تهجم على الغيوب والمجهولات

فليكن رأينا إذن في تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات ما يكون ، فإن هذا الرأي لا يبطل الإيمان بالغيب إلا على لسان مجازف يخطئ بالقول حيث يجهل المدى الذي يخوض فيه . وإنما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لأن الباحثين فيها أصابوا أو أخطأوا في التخريج والتأويل ، وإنما نقبلها أو لا نقبلها ككرة أخرى لأن قيام الدعوات النبوية متوقف عليها أو غير متوقف عليها بل ماض في سبيله على اختلاف هذه العلامات

أما الإنباء في الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان

الأحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية

مقدمات النبوة

والآن ، وقد أقررنا الطوالع والعلامات في قرارها الذى يسهل الاتفاق عليه ، نظرق الأبواب الواسعة التى تتفتح أمامنا للبحث فى مقدمات النبوة الإسلامية ، وهى أبواب البحث فى الحوادث التاريخية والآيات الكونية . وليس أثبت منها فى مقام الكلام على النبوة الإسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوءات

تاريخ العالم كله - قبيل عصر الدعوة الإسلامية - هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفى صميم الجزيرة العربية من أجوافها إلى أطرافها

فلم يكن للعالم كله فى تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالإجمال إنها حالة فساد وانحلال
فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات
وإذا نظرنا إلى الأحوال فى جملتها وجدنا أنها هى الأحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة الى الدعوة الدينية

إن ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعا فى طياتها ، وهى

فقدان الثقة بكل شيء ، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة إلا أن الثقة هي المطلوبة ، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى في كل مكان
ونبدأ بالأديان الكبرى التى شاعت في العالم المعمور قبيل الدعوة

المحمدية . وهى على حسب قدمها : المجوسية واليهودية والمسيحية
فلم يكن أتباع دين من هذه الأديان على استقرار في عقيدتهم او على ثقة بأجبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطرابا ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التى تشملها الثنوية أى الإيمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر في كون واحد

فقد كانت هذه المجوسية تستعصى على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الأولى التى اشترك فيها الهنود والفارسيون ، وقد عمل « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية وإخلاؤها من شعائر الهياكل والمخاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل ، وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة في نخلة واحدة ، ولم يعرف الناس عنهم على البعد إلى عصر الميلاد المسيحى إلا أنهم رصدوا للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام وقام « مانى » الذى تنسب إليه المانوية في القرن الثالث للميلاد فأراد أن يغلّق باب الوثنية في الشرق ويرجع إلى ثنوية قريبة من ثنوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية ، فحول قومه من الكتابة الهلوية إلى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد أن يفلح في إقناع ولاية الأمر بآرائه في الإصلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسائس الكهان والوزراء ، فقصى في السجن وقيل إنهم سلخوا جلده وعلقوه مصلوبا لسباع الطير

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباذ أبى كسرى أنوشروان الذى حضر بعثة النبی وتلقى رسالته بالسخط والوعيد . . .

ففى عهد قباذ هذا ظهر « مزدك » داعية الإباحة والفوضى فى الأموال والأعراض ، ولم يترشح هذا الداعية خطوة واحدة من الثبوتية إلى التوحيد أو ما يشبه التوحيد ، وقال كما قال « مانى » من قبله إن العالم كله فى قبضة إله النور وإله الظلام ، غير أنه زاد عليه « إن النور يفعل بالقصد والاختيار وإن الظلمة تفعل على الحبط والاتفاق ، وإن النور علمى حساس والظلمة جاهلة عمياء ، وإن المزاج كان على الاتفاق والحبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار »

وزعم مزدك هذا أنه جاء ليطل الخلاف بين العقائد والأهم وينهاهم عن المباغضة والقتال ، وأنه لما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فقد أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشترأهم فى الماء والنار والكلأ ، ورد القوى الكونية إلى أربع هى التميز والفهم والحفظ والسرور ، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير

منهم اثنى عشر روحانيون . . . وكل إنسان اجتمعت له أسرار الأربعة والسبعة والاثنى عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف ، وإن ملك الملوك فى العالم العلوى إنما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الأعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئا انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية^(١) »

(١) الشهر ستانى فى الملل والنحل .

ويقال عن مزدك هذا أنه كان عظيم الدهاء خبيراً بفنون الإقناع والإغراء . وإنه بلغ من سلطانه على قباذ أنه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق في إيمانه ويقتدوا به في ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه إليه لولا أن علم ولى عهده كسرى فدخل عليه باكياً متضرعاً يتوسل إليه إلا يذله هذا الإذلال ويتبذل أمه أمام الناس هذا الابتذال ، ثم تملأت عصبه ولى العهد فقتلوه وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعاً في الأرواح والشياطين حاثلاً بينهم وبين التوحيد بل حاثلاً بينهم وبين الثنوية على بساطتها الأولى ، فإن موالاته الأرواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الإرباب الصغار عدا الإلهين الأقدمين إله النور وإله الظلام ، ولا يزال المجوس إلى اليوم يبدءون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى في تلاوة الأناشيد التي يسترضون بها شياطين الظلام ، قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية في معقلها الأكبر إيداناً حياً بنفاذها وانتهائها إلى الغاية من الجمود والضيق . إذ كانت المسيحية في الواقع حركة إصلاح واسع في جميع العقائد اليهودية التي جمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين إلى نقيض الدين ، ولا شيء

يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التي حسبت الاله المعبود ملكا لها دون سائر عبادته يبيع لها في سائر الأقوام مالا يباح في شريعة ولا فسطاس مستقيم

وفي عصر الميلاذ نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة إلى إصلاح عقائد قومه وشعائهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزي لتفسير مسائل الكتاب التي لا تقبلها الحكمة ، وكان مما يلفت النظر في هذا الصدد أنه رجع إلى قصة إبراهيم وسارة وهاجر فعبّر بها على أسلوبه تعبير الرموز ، لأن المسلك الذي نسب فيها إلى إبراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . فعنده أن سارة هي الحكمة الإلهية وأن هاجر هي الدربة الدنيوية ، وأن زواج الخليل من سارة لم يثمر في أول الأمر لأنه لم ينضج له قبل التمرس بمقائق الحياة ، وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذي أدخله بولس الرسول في أسلوبه الديني فقال في رسالة غلاطية : « إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة . لكن الذي من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذي من الحرة فبالموعود . وكل ذلك رمز . لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذي هو هاجر . لأن هاجر جبل سيناء في العربية ، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنينا ، وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعا فهي حرة . . . »

وهذه ثورة على تفسير موعود إبراهيم بأسلوب العصبية والأنانية تلفت النظر فيما نحن بصددته وتومئ إلى ما يأتي بعدها في الزمن المتطاوّل . ثم سرى الإصلاح المسيحي مسراه ففضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية ، وجنى العناد

والإصرار على الباطل جنائته المعهودة فذهبت ربح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة ذات مذهب في التوراة أو التلمود أو تقاليد الأحرار والربانيين ، وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقدوا وحدة العقيدة والروح ، فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التي عرفت بعد ذلك بطائفة القرائن وأنكرت كل رأى غير النصوص والحروف في الكتب المنسوبة إلى موسى الكلم ، فكان خوف التفرق سبيل النكسة إلى أيام العصبية والأنانية القومية ولم يكن سبيلا إلى الحرية والتجديد . ومما يلفت النظر مرة أخرى أن إصلاح هذا الجمود الجديد إنما أتى من قبل البلاد الإسلامية على يد سعديا المصرى وابن ميمون الأندلسي ، وأن حكماء اليهود في القرن الثالث للهجرة لم يكن لهم مذهب في تنزيه الإله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين .

وكذلك كان يهود العالم في عصر البعثة المحمدية بين أشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبد الذي ينتمى إليه ، وبين شراذم متعنتين في الجمود على الحروف والنصوص يرجعون بهذه النكسة إلى الداء الذي قامت المسيحية لإصلاحه قبل بضعة قرون . فتلك حاجة جديدة إلى إصلاح جديد .

محنة المسيحية

وقد جاء الإسلام والمسيحية منتشرة في بلاد الدولة الرومانية شرقا وغربا يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها ، وكان هؤلاء الملوك

والرؤساء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون من ألوان العذاب يصبونه عليهم ، فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين ، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم أشد عليهم من محنة الاضطهاد والتعذيب ، لأنهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء ، فдسوا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى وفرقوهم شيعا متباغضة متنافرة يرمى بعضها بعضا بالكفر والضلالة . وينشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب الخلاف على أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب في العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعا من حظيرة الدين ، بل كان بحث الآباء الأولين في سبيل الوصول إلى أركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لا يحسب منها وإنما يحسب من الكفر والضلالة . فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة إلا حكمت على مناقضها بالمروق والهرطقة ، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعد الأقوال في الطبيعة الآهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ، ويأتى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضى على البقية الباقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركنًا من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام ، فلا جرم يتردد على الألسنة ويدون في كتب التاريخ يومئذ أن القوم جميعا قد استحقوا العقاب الإلهي وأن أبناء إسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر الله عقابا للظالمين والمارقين .

ويستطيع القارئ أن يترجم هذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات

العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ إلا زعازع من هذا القبيل على عروش الدول والإمارات وأولها عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول في ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح في السلطان على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح في السلطان حين وثب عليه ، وينقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا في البلاد مع اختلاف الخطوة والنقمة بين الأنصار والخصوم ، فلما تبادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله في زمن أنصار ولا زمن خصوم ، وعم الخوف أقرب الناس إلى السلطان وأبعدهم منه على حد سواء .

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فإذا بالبلد الواحد ينقلب في الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال في نظام ولا في سلام ولا في معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال ، وبطل الأمان كما بطل الإيمان ، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعا غير خلاصة واحدة هي ضياع الثقة بكل منظور ومستور ، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب .

هذه أحوال العالم وهذه هي مقدمات الدعوة الإسلامية من تلك الأحوال : مقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التى تدبر الدواء للداء المستحکم على غير انتظار وبغير حساب . عالم إذا صح أن يقال عنه إنه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب فإنما كان ينتظر عناية من الله .

الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية

كان في الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى ، وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية في رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التي تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التي يعزها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث في أرض غسان والحيرة ونجران .

ويقول ابن قتيبة إن المجوسية كانت معروفة في قبائل تميم ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم ويرى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس ، وأن لقيط بن زرارة - كما جاء في ابن الأثير - تزوج بنته دختنوس وسماها بهذا الاسم الفارسي ومات عنها فقال وهو يوجد بنفسه :

يا ليت شعري عنك دختنوس
إذا أتاهما الخبر المرموس
أتحلق الققرون أو تميمس
لا ، بل تميمس إنها عروس

والأغلب على الظن أن المجوسية شاعت في هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام ، ولا ينكرون في عبادتهم للنار شيئاً لأن أشعال النيران للقرى والإستسقاء وإشهار الحلف لم تكن مجهولة في البادية العربية ، ولعلمهم سبقوها إلى

عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج إلى رصد الأنواء والإهتداء ،
بالنجم في سفر الليل حتى جعلوا له أسما خاصا من السرى والإدلاج
وغيرهما من الرحلة في سائر أوقات الظلام .

ولعل أحدا منهم لم يكن يلتفت إلى مجوسية المجوس إلا حين يحدث
الزواج بالمحارم التي لا يحلها عامة العرب ، فأما فيما عدا ذلك فقد كانت
مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البداوة في الأعراس والمآتم
وتعظيم الأسلاف والأرواح ، لا ينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا
النصرانى من عرب الجاهلية

وإذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية ، فقد عرفوا الصابئين الذين
كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم في عقيدتهم
لكثرة قيودها وأشراتها وكمائن الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن
حولهم . وقد كانوا يوافقون كل دين في أشياء ويخالفونه في أشياء ،
ويجنحون إلى العزلة والاعتكاف فلا يصل إلى أسرارهم إلا من تعمد
البحث عنها والنفاذ إليها من طلاب المعرفة والمتسكين والمتحنفين .
والظاهر من أصول كتابتهم النبطية أن الصلة بينهم وبين نبط الحجاز
الشمالى عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان
البحرين والشواطئ اليمنية ، ولهذا وجد فيهم من ينتمى إلى جد يسمونه
كاظم بن تارح يزعمون أنه أخو إبراهيم الخليل ، وكيفما كانت علاقة
العرب بموطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة
كما دانت تميم بالمجوسية . لأن هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل إلى

طائفة كبيرة بعيدة من مبطنها على موارد الماء . وإنما ينتقل إليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقائد الوثنية من حولها . ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان في العقيدة الصابئية ، فإن اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة ، واسمهم الأول في أصله مأخوذ من سبج لا من سبأ التي ينتمى إليها بعض قبائل اليمن ولا من صبا بمعنى ارتد عن الدين ، وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصول هذه الأسماء

وكانت اليهودية أعم انتشارا في الجزيرة العربية من المجوسية . لأن المجوسية بقيت محصورة في عشائر من العرب من سكان بين البحرين . ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل جملة واحدة إلى يثرب على رواية الأغاني « بعد أن ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام »

قال صاحب الأغاني : « لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيثة فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم نزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية - وهى بطحان ومهزور - واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع إليهم فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها إلى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبة فى متأخر الحرة فتحول القوم إليها فى مترلهم فنزل بنو النضير ومن معهم على مهزور وكانت لهم تلاحه وما تبقى من بعث وسموات فكان ممن يسكن المدينة ، حتى نزلها الأوس والخزرج . من قبائل بنى إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو زيد

وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود . . . وكان هناك معهم من غير بنى إسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حتى من اليمن وبنو مرتد حتى من بلى وبنو نيف حتى من بلى أيضا وبنو معاوية حتى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهنة وبنو الشظية حتى من غسان »

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التى تحميمهم فيها الآطام والأبنية . فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة فى المدن وزرعوا الأرض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها . واختاروا من التجارة أسيرها على غير المحاربين لأنهم لم يقدرُوا على حراسة القوافل الكبيرة التى كانت تحمل أحيانا - كما جاء فى الطبرى - على أكثر من ألفى جمل . فاستغلوا المال وشاركوا فى قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط أنهم غرباء فى بلد غريب . واجتنبوا المزاحمة فى التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها فى أبدي قريش . ولكن يقال فى روايات غير حاسمة أن بطوناً من نضير وكنانة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهودية من جوارها لطريق المدن التى سكنها اليهود

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية إلى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بأمرة ذرعة المكنى بذى نواس . فلا خلاف فى وجود اليهود بين عرب الجنوب من أهل اليمن . ولكن الخلاف فى تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها . لأن المعهود فى بنى إسرائيل لتأخيرين أنهم كانوا لا يدعون أحداً إلى دخول دينهم لإيثارهم أنفسهم

بوعد إبراهيم الخليل وحصر هذا الوعد في ذرية إسحاق بن يعقوب .
وقد حدث في عهد هركانوس الأول المكابي أنه أغار على الأدوميين
وإكرههم على اليهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرو د حليفة الرومان .
وكان ذلك في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد حين ضعف إيمان اليهود
برجعة الدولة الدنيوية إلى أرض الموعد . وكان تديبرا حريبا سياسيا
دعت إليه الرغبة في تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية
فارس وحلفائها من جانب الصحراء . فإذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل
اليمن على اليهود فمن أين لهم القوة التي تضارع قوة المكابيين في الشام
وفلسطين ؟ وإذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والإقناع فكيف
قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين في وعد إبراهيم
الخليل ؟

إن الاحتمال الراجح بين هذه النقااض أن اليهود وصلوا إلى اليمن
مهاجرين متفرقين . وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبي البابلي لقرب
بابل من طريق البحرين إلى اليمن . فإن لم تكن موعلة هذا الإبعال في
القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود في أوائل القرن الثاني
للميلاد . ثم استمرت نحو ثلثائة سنة إلى أواخر الدولة الحميرية . ثم
وجد اليهود الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد امام تحالف الحبشة
والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران . فعقدوا الحلف المقابل لهذا
الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطئ الشرقية .

ومن المعلوم أن الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم في أرض
اليمن . وكانت ترحب في بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة

الرومانية واشتأهم بمعادتها وموالاة أعدائها ، وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون ، ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من أتباع المذاهب التى وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين فى القسطنطينية . ولم تقبل نصارى الحيرة إلا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من اتباع الرومان وانتمائهم إلى مذهب النسطوريين .

فالدولة الحميرية على عهد ذى نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد شعب الله المختار ، ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشهار بمحالفتهم لإقناع فارس بولايتها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم ، واشتهرت من ثمة باليهود لإنها أيدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرا من معاونتهم - خفية أو جهرة - لشركائهم فى العقيدة أبناء الحبشة . ولوكان اليهود هم القوة التى قامت عليها دولة حمير لما صاروا إلى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد .

وأيا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فإنها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصالح والإصلاح ، ولم تكن يهودية معترفا بها بين بنى إسرائيل فى غير الجزيرة العربية ، وقد نقل الدكتور إسرائيل ولفنسون صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » رأيا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتر Graetz فقال : « إنهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربية ويقولون إن الذين يعتبرون انفسهم من اليهود فى جهات خبير ليسوا يهودا حقا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما ، وأن العالم شيركان يعتقد أن

اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة . فقد كانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى »

ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأى فى أنفسهم غير رأى إخوانهم الدمشقيين والحليين . فقد روى أوليرى Oleary فى كتابه عن بلاد العرب قبل محمد « أن بنى النضير وبنى قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنيين ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون . وأما ياقوت فإنه يقول ان يهود يثرب عرب تهودوا . وقد يخطر لنا ان بنى قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنين وثلاثين »

على ان الصبغة اليهودية التى بقيت مع يهود يثرب فى معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام - أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين . وما أشبه قينقاع أن ترجع فى أصلها إلى كوهنكا ؟ وما أبعد أسم النضير من أسماء العرب الأقدمين ! . لقد قيل إنهم بطن من بطون جذام من أبناء عم اللخمين . فهل كان فى جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان فى وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التى ظلت إلى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب بيت المدارس ويسميها اليهود (بيت هام مدراس) ؟

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر فى مقدمات الدعوة الدينية . أو مقدمات النهضة القومية الإنسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من

حولهم دروسا فى التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهمى ضائهم لما هو أصح منها وأقرب إلى التقدم والهداة . هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها فى معاملاتهم وعلاقة بعضهم ببعض فى السلم والحرب والمخالفة والمخالفة .

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا فى أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك . لأنهم لم يكثرثوا لأمر اليهودين من قبائل العرب إلا ليتفتعوا بولائهم وحراستهم لتجارهم فى الطريق . فلم يكن بين الجاهليين اليهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق إلا أن يكون فوق الشجاعة والرجولة فى جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق فى حريمهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق .

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم فى جوار المدينة . فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الإيقاع بينها وإثارة الأحقاد فى المتخاصمين كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان . ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد . فدبت الخصومة بين بنى قينقاع من جانب وبين بنى النضير وبنى قريظة من الجانب الآخر . ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شىء غير حسدهم لبنى قينقاع وعملهم على الوقعة بين قبائل الأوس والخزرج وهى كثيرة فى جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بنى قينقاع أنهم كانوا يقيمون فى قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبنى قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبنى النضير غير ضاحية المغرب . فلما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج تفرق

اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس . ولم يتحرك أحد من النضيريين والقرظيين لنصرة بنى قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة . ولا تحرك أحد من القرظيين لنصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبي عليه السلام وصعود أحدهم - عمر بن جهاش - على جدار يجلس النبي تحته ليلقى عليه بصخرة من أعلاه . . . وإنما وصفهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء في القرآن الكريم من سورة الحشر أنهم « لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

وليس فى خليفة من هذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهلين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به إلى طريق مستقيم .

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا فى جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر النبي بدعوته خذلوه من مبدأ الأمر وأوفدوا وفودهم إلى كفار قريش ، يعرضون عليهم المؤازرة والمخالفة واتخذوا خططهم التى ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها إلى حين إجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وإيثارها على دعوة التوحيد والتزينة التى جاءت بها رسالة الإسلام وشملت بها تعظيم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد نجمة منذ عهد إبراهيم الخليل . وكان فى سعيهم للتأليب على هذه الدعوة بعض الأناة والحيلة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة . لأنهم

كانوا يترأفون في مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الأمل في القضاء على تجارة قریش وانفرادهم بعد قریش بتجارة الحجاز كله من اليمن إلى مكة إلى المدينة إلى الشام . فلما هاجر المسلمون القرشيون إلى المدينة وأقاموا لهم سوقا بجوار سوق اليهود أرادوا ان يفسدوا كل ما صنعه الإسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . واستياسوا في الكيد والدس ولم يحرصوا على شيء غير استبقاء الربح والتأليب على كل إصلاح وكل مصالحة في غير هذا السبيل .

فإذا كان لليهود يثرب أثر في مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين في المقاومة والعناد ، وإذا استفاد الباحث من تاريخ هؤلاء القوم توضيحا لتلك المقدمات فإنما تأتي هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه . فإنهم كانوا تصحيحا علميا لأخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الإسلام في عصر المملكات والقصائد الجاهلية . ولقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الإسلامية التي خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر الإسلام . فجاء بعض المستشرقين بوجه من أوهامهم يشككون في وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين ، وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممتنع لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين .

فاليهود في يثرب أصدق جواب على هذه الأوهام لأنهم غرباء عن الجزيرة العربية دخلوها في القرن الأول أو الثاني للميلاد ، ولا يجوز الشك في ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على

غير علم ولا روية فيما يصح أن يقال ، فإن القول بذلك يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحويل إلى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا في كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم وينضووا إلى قوم مخذولين في بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه أهل للدخول معهم في عداد شعب الله المختار ، فهذا من أغرب الفروض التي لا تثبت بغير دليل قاطع فضلا عن الثبوت بغير دليل . وليس في هجرة اليهود من فلسطين إلى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم في القرن الأول أو الثاني للميلاد ، وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه شيء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الأخرى التي يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها وهم مشردون مستضعفون ، مع العداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على إسرائيل دينا ولغة وميلا في السياسة والولاء وعلى جميع هذه الفروض التي لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقة التي لا تختلف مع اختلاف القول في أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادي القرى على الإجمال .

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء أن يحفظوا في صحفهم كلاما عربيا مما قبل الإسلام بثلاثة قرون يخالف العربية الموحدة في عصر الإسلام . إن صح أن العربية لم تكن موحدة في أيام شعراء المعلقات . وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الإسلام بأكثر من مائة عام .

وكانوا خلقاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التي يشك المستشرقون في سبقها للإسلام إلى عصر أولئك الشعراء .
أو كانوا خلقاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يُريد ذلك الشك نوعا من التأييد .

أما إذا كانوا على القول الراجح - بل القاطع - يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها . وتكلموا الآرامية أو الأدومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذي تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الأدومية أو العبرية ليس بالمستغرب ان يتم بين لهجة العرب في الجنوب ولهجة العرب في الحجاز وسائر أطراف الجزيرة . فقد أقام عرب اليمن في الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمنا أطول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الأول أو الثاني للميلاد .

ولم يصل إلينا شيء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذونواس في نجران . ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين . وكان منهم كعب بن ماتع الحميري الملقب بكعب الأحبار . وكان منهم وهب بن منبه الصنعاني الذي قال ابن خلكان أنه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم وأشعارهم في مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب وهب من المغربين في طلب النوادر فلم يذكرنا لنا زمنا شهاده . أو شهاده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة في اليمن ود . حاو دما . وأدنى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن إلى

الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن بإذن النبی علیه السلام ،
ومنهم معاذ بن جبل وعلى بن أبی طالب ومن كان یصحبهما فی عمل
الولاية والتعلیم ، فلم نسمع أن وفود الیمن علی النبی جهلوا ما سمعوه أو
نطقوا بكلام لا یفهمه أهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم
فلا یفوتهم ما اختلف من كلامهم إذا كان ثمة اختلاف .

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وليس فی
أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قریش مع أهل الیمن بلغة غیر اللغة
القرشیة فی الجیل السابق للبعثة والجیل الذی تقدمه ، ومن البعد جدا ان
یغیب عن ذاکرة العربی حدیث جیلین قبل جيله وقد كانت أخبارهم
ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة علی الحفظ وتسلسل الروایة
والإسناد من جیل إلى جیل ، فإذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة علی
مدى الذاکرة فی عصر البعثة المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا
الشیوع وهذا التعمم ، وترجع بنا هذه الأجيال إلى أقدم الأوقات الی
أسند إليها نظم المعلقة فلا نستغرب نظمها باللغة الی یفهمها العرب من
الجنوب إلى الشمال .

ولقد سمع النبی علیه السلام قصیدة كعب بن زهير ، وقد نظمها
ولا شك بلغة أبیه زهير بن أبی سلمی ، وكان زهير من أسرة شاعرة
مسیوقا إلى النظم بتلك اللغة ، ولا یعقل أن یكون التغیر فی النظم قد طرأ
عليهم فجأة فی مدى سنوات معدودات ، فإذا بلغنا بالمعلقة عصر
هرم بن سنان - ممدوح زهير - وما تقدمه بقلیل فلیس من شعراء
المعلقة من هو أقدم من ذلك بزمن طویل یمتنع فیهِ التوافق علی النظم
الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق

بين يوم وليلة ، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشعارين ونظمت فيها قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه .

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن في الجزيرة العربية ، فإذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة في مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولن شاء أن ينكر نسبة البكرين أو التغليبين أو الغساسنة إلى اليمن مستندا إلى الدليل أو غير مستند إلى دليل على الإطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم إلى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية إليهم في وقت واحد ، فإنه بذلك ينكر نسبتهم إلى كل أصل معروف في الجزيرة العربية ولا يأتي لهم بأصل غير تلك الأصول .

وأن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمر غير قابل للإنكار في الجزيرة العربية التي لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارئ الخصب والجذب والغلبة والهزيمة . وما من باحث ذي روية يعتسف البت بذلك الإنكار ثم يحزم بحصر اليمانية في حدودهم منذ احاطت بهم تلك الحدود . فن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبحر اليمن قط في العصور التي سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف في شيء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارئ وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة في لهجة

من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا في الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون في جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك في الحقيقة مشكلة تزال .

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ إليه منكرو الوحدة في لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال ، وأن اعتساف التاريخ هنا لأهون في رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التى لا تقبل التصديق ، فما من قارئ للأدب يسبغ القول بوجود طائفة من الرواة يلقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا ويفلحون في ذلك التلفيق . إذ معنى ذلك « أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأزمنة والأعمار والملكات الأدبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير ومزاج العرييد الغزل امرؤ القيس ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذى ينسب إليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ثم يفرط الرواة في سمعها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسبغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن إساغته بغير برهان ولغير سبب إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وإن تصديق النقائص الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال .

وشتان - مع هذا - النقائص التى يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا

تفقدتها فلم يجدها ، والنقائض التي يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم .

فهذه النقائض التي تحاول أن تشككنا في وحدة اللغة العربية قبل الإسلام يرفضها العقل لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالإقناع .

فما يتكلفه العقل إذا تقبلها أن يجزم - كما تقدم - بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية لناظر اللغة القرشية في الجبلين السليقيين للبعثة المحمدية غير معتمد على أثر في ذاكرة الأحياء ولا في ورق محفوظ ، وأن يلغى كل ما توارثته العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقايا الأسلاف ، وان يفترض وجود الرواة المتأمرين على الانتحال بتلك الملكة التي تنظم أبلغ الشعر وتنوعه على حسب الأمزجة والدواعي النفسية والأعمار . وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الأسانيد العربية مبطل لمرجعها دون غيرها من مراجع الأمم التي صح عندها الكثير مما يخالف الانتحال والكذب الصريح .

ومن النقائض التي يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منها حجة الثبوت الواقع في جملته أن يحدث الاختلاف في الرواية وان يتعذر فيها الإجماع بين الرواة ، فإن العقل لا يصدق الأقاويل التي يتفرق رواةها ويطول العهد عليها ويعول عليها أصحابها على الذاكرة والإسناد ثم تأتي متفقة في الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال .

فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب .

وقد نسمع النقيضين في هذه الحالة فرفضها ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه . فقد سمعنا ان عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة القى قصيدته في وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبي سلمى كان ينظم قصيدته في الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات . وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن نسقط الشعر الذي يبلغ في وقت نظمه بين أقصى الطرفين .

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ونعلم أن تلفيقهما في الزمن الماضي جد عسير ولو أراداه الملقنون ، فما يروى عن امرئ القيس أنه تعجب من إعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته . وسأل إحدى النساء في ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب ، ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها إنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده وسمى الحلة التي كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذي يفرزه ، وأنه لم يزل حتى استشرى به الفساد في رحلته القصية فظهر في تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه في عيني امرأته ، فلا يسهل على المناظر في جميع هذه الأخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى رواية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التي تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين .

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم تكذب قصيدته التي تم في جعلتها على خلائقه التي تنوب عن تلك الأخبار وتغنيها عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب .

وهذه القرائن الأدبية هي التي يغفل عنها المستشرقون ولا يفتنون لها لأنهم ينظرون في النصوص والإسناد ولا ينظرون في الأدب ولا في روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التي تلقنها في حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى في اللغة العربية فكتب في مادة « أخذ » أنها تأتي بمعنى نام لقوله تعالى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . . . ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبي العذراء لأنه كان والد الزوجة التي بنى بها النبي عليه السلام وهي عذراء . ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونه أو مصر السعيدة Egypt

Felix قياساً على اليمن التي تسمى العربية السعيدة Arabia Felix

ومنهم من يقول إن التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من الضحى . . . وما هي في وضعها إلا كالتغذية من الغداة والتعشية من العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار . . . ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذي يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذي نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تفتحم هذه المباحث وهي أجهل بآلاتها من عامة الأمنيين.

فالدكتور سنكلر ثسديل Thusdale صاحب كتاب مصادر الإسلام يروى شبهات الناقدین للقرآن الکریم ، ومنها هذه الآیات :

دنت الساعة وانشق القمر عن غزال صاد قلبي ونفر
أحور قد حرت في أوصافه ناعس الطرف بعينه حور
مر يوم العيد في زينته فرماني فتعاطى فققر
بسهم من لحاظ فاتك فتركني كهشم المحتظر

ويتخذ منها قرينة اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين
ويضيف الدكتور العلامة إلى هذه الآيات أبياتا أخرى كقول
القائل :

أقبل والعشاق من خلفه كأنهم من حذب ينسلون
وجاء يوم العيد في زينة لمثل ذا فليعمل العاملون

قال الدكتور : « ومن الحكايات المتداولة في عصرنا الحاضر أنه لما
كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الآية وهي - اقتربت الساعة وانشق
القمر - سمعتها بنت امرئ القيس وقالت لها إن هذه القطعة من قصائد
أبي أخذها والدك وادعى أن الله أنزلها عليه ، ومع أنه يمكن أن تكون
هذه الرواية كاذبة لأن امرأ القيس توفي سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد إلا في
سنة الفيل أي سنة ٥٧٠ م فلا ينكر أن هذه الآيات المذكورة واردة في
سورة القمر وفي سورة الضحى وفي سورة الانبياء وفي سورة الصافات ،
وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف في اللفظ وليس في المعنى ،
فورد في القرآن اقتربت وفي القصيدة دنت . . . ومن البين الواضح أنه

يوجد مناسبة ومشابهة بين هذه الآيات وبين تلك الآيات الواردة في القرآن . فإذا ثبت أن هذه الآيات هي لامرئ القيس حقيقة فحيثما يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها في القرآن لأنه يتعذر على الإنسان أن أبيات شاعر وثني كانت مسطورة في اللوح المحفوظ قبل إنشاء العالم »

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعارضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وأنها ليست من نظم امرئ القيس الذي توفي قبل مولد محمد بثلاثين سنة ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ إلى هذا الحد من التهلك والاستخفاف والجرأة في أي زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الإسلام التي كانت متسعة الأطراف والأكتاف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها في مثل هذا الموضوع .

ثم يختم الدكتور كلامه في هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيلة لئلا يثبت نظم هذه الآيات بعد الإسلام فتسقط الشبهة كلها . فيقول إن هذه الآيات ليست كل ما يعترض به المعارضون . لأن ما تقدم من الأسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية (١) .

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخاطبين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم - أنهم يحسبون أن علماء المسلمين يلقون في بحث تلك الآيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية

(١) من صفحة ٢٥ إلى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية .

ولا يلهمهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافية لليقين وبإدحاض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية

وهذه النظرة الكافية هي التي تعنى الناقدين المستشرقين وهي أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر في الأدب كل التعويل . ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ في القليل دون الكثير كذلك يتسع سبيل الجدل في إنكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط . وكذلك يجوز الخطأ في محاكاة الكلمة أو بضع كلمات ولا يجوز في السطور والصفحات

فإذا نظر خبير الخطوط في صفحة من الصفحات فقد تغنيه نظرة في الحكم عليها بالصحة أو التزييف ، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات إذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة ، ولكنه إذا حصل على تلك الكلمة المكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسر أن ينخدع فيها كما ينخدع في الكلمة المفردة بغير تكرار ، وعلى هذا المنوال يبدو الصحيح والزيف في الشعر الأصيل والشعر المدخول ، وقد يجوز التزوير في الشطرة الواحدة أو البيت الواحد إذا امتنعت المقارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير . ولكنه لا يجوز إذا كرر المزور الأبيات ومثلت للناظر الناقد طريقته في تزوير هذه الأبيات المتفرقات .

تزوير الأدب الجاهلي مستحيل

أما المستحيل ، أو شبيه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطبغ في جملة الصبغة التي تشمل على تباين القائلين

والشعراء ، فإذا جمعنا الشعر المنسوب إلى الجاهلية كله في ديوان واحد فمن المستحيل أو شبه المستحيل أن نجمع ديواناً يماثله من كلام العباسيين أو كلام المتأخرين ، وإذا قل الفارق بين الشعر الأموي الأول والشعر الجاهلي فتلك آية على صحة العلامات التي تميز الشعر الجاهلي وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذي لم يفرق عنه افتراقاً بعيداً بزمانه وثقافته قائله وبيئاتهم في المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلي والشعر المخضرم ، إن لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مع انتمائه إلى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين

إن الملامح الشخصية التي تميز بين الفرزدق والأخطل وجريير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التي تميز بين امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وزهير ، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والأخطل وجريير في وسع راوية واحد فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعاً لا سند له ولا سابقة من مثله في آداب الأمم ولا نصيب له من الذوق الأدبي غير النبو والاستغراب

وربما كان « سنكلر تسديل » الذي مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة والذوق الأدبي مثلاً صارخاً كما يقال في التعبير الحديث ، ولكن المثل الصارخ هو الذي يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التي تتردد بين الشك واليقين ، وقد أتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد

سوء فهم وسوء نية

والمعهود في جماعة المستشرقين أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم وسوء النية لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين

أو ينظرون في بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر إلى الشرق نظرة المتعالى عليه في حاضره وماضيه . غير أنهم ماعدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون في النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما

يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع
فعاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الإسناد المعتمد عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح . وأنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل إنكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان . وتشكيكهم في أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه إلى مطلب بعيد من مطالب الإحاطة والاستيعاب . فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما في الدار . وتقديرهم لمسألة الشك في وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح في مقدمات الدعوة المحمدية ، إذ هى أصلح هذه المقدمات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق في التمهيد لتناججها من مقدمات السياسة والأحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى في طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقة لأوانها ، ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة إليها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويمجرى معه مجرى النقيض من النقيض

الفخر باللسان العربى

إن الشعور بالعربية والفخر باللسان العربى مقدمة لا بد منها للدعوة التى تواجه العرب بآية البلاغة في القرآن الكريم . وتروعههم بالمعجزة التى يحكونها إن استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث فى أمة لم تتأصل فيها مفخرة
اللسان العربى والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال ، ولابد - مع
ذلك - أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فنيا لم يتناول عليه العهد ماث
السنين ولم تذهب روعته بالألفة وفتور النسيان

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب جميعا
كرامة لقريش أو لأرض الحجاز . ولكنها خليقة أن تسرى الى نفوس
العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكنة
لسلطان من « العجم » على الخصوص

والكعبة هى الجوار الوحيد الذى يشعر عنده العرب هذا الشعور
فهم فى الشام رعايا دولة الروم . وهم فى الحيرة رعايا دولة
الفرس . وهم فى اليمن أتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم
بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء

ولكنهم عند بيت الله فى حرم الله يقدسونه جميعا لأنه لهم جميعا
يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم الذين يلوذون ويأوون
إليه ، فكلهم من معبود أو عابد فى حمى من الكعبة لانهم فى بيت الله
وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة
العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم
من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها
ويقوموا لها نظيرا فى أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتر بها
كاعتزاز البادية والصحراء

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة
 الغساسنة في الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء .
 ولا بقية من الفخر لهم غير أنهم عرب وليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء
 وأن إبقاء الإسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل
 على حكمة الإسلام في الاحتفاظ بها للعالم الإسلامي وفي متسعة العمم
 بعد عالمه الأول في الجزيرة العربية

ونكاد نقول إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجا حين صارت
 الكعبة إلى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد
 ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية لما اعتزوا
 بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز ، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين
 مأخوذون بعصبية الأجداد والعشائر إن لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر
 بلسان مبين يتيهون به على « العجم » أجمعين ؟

قال سترابون إنه وجد الأقوام في بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ،
 وهي بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين ، ويقال
 في روايات شتى إن الحاميين وصلوا إليها في زمن قديم كما كانوا يصلون
 إليها ويتجمعون فيها بعد الإسلام بعد قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة
 اللغوية بينهم أقوى من عواملها في جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من
 الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التي من عاداتها
 الترحل والانتقال من مرعى إلى مرعى ومن جوار إلى جوار

وفى زماننا هذا - من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين - لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة وفيهم الأيرلنديون والأيقوسيون والغاليون . وفى كل أمة من هذه الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنشورة وفى مجامع الخطاية والبيان . ولا نرى أحدا يستغرب ذلك فى بلاد الإسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون . ولا نرى فى مصر هنا من يستغرب البيان العربى الفصيح إذا نسب إلى فئة من أبناء النوبة وهم يتفاهمون فى الأقلم النوبى برطانة لا يفهمها سائر المصريين . فلا موجب لإنكار النظم والكلام بلغة واحدة فى جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتى سنة أو أكثر من ذلك مع عجز المنكرين أن يأتوا بشاهد من اللغة الأخرى التى يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من أجلها . ومع توافر الأسباب الموحدة فى جزيرة العرب على نحو لم يعهد فى غيرها من بلاد الزمن القديم . ولا تكن كلمة أو كلمات للحكم بانفصال اللغات . فإن الإقليمين فى قطر واحد لا يتفقان فى جميع الكلمات

فمن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة فيها إلى الآن . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبى واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب

وحدثت فى تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال إلى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعاً لهم كلماً وفدوا على الشمال . وذاك بعد قيام الدولة النبطية التى ازدهرت فى القرن الرابع للميلاد وتغلغل

روادها وتجارها في الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم في بحر إيجة وفي
إيطاليا الجنوبية

وقد كان من اسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط في الشمال
اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الإسكندر واجتياحه لدولة فارس التي
كان لها الإشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة في الأقطار
العربية . وبعد انهيار سد مأرب وانتشار القراصنة في خليج العجم وبحر
العرب والبحر الأحمر . فغلبت طريق القوافل التي تمر بالحجاز على
جميع الطرق الأخرى وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ
الحجازيون بالخطوة الوسطى التي تلتقي عندها سبل الجنوب والشمال
والشرق والغرب في كل بقعة عربية لم تكن للفرس حامية عليها .
واشتعلت الحروب بين اللخمين على خليج العجم والغساسنة في بادية
الشمام فانحصر الأمان أو كاد على طريق الحجاز . واحتاج النعمان بن
المنذر - صاحب الحيرة - إلى زعماء مضر لحماية تجارته داخل الجزيرة إلى
مكة ، فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد
فنتازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن ، وقال له هذا إنه يجيئها
على أهل الشيخ والقيصوم في أهل نجد وتهامة ، ثم نشبت الحرب
فاحتكم الجميع أخيرا إلى سيد من سادات مكة عبد الله بن جدعان
وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز ، وعمل
الحجازيون على تعظم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا في الكعبة تماثيل
أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التي قيل إنها
من « المنية » بمعنى « القدر المقدور » معبود النبطيين ، وقولهم حانت منيته
وحان قدره معنى واحد عند عباد مناة

ولا شك أن قصة « عمرو بن لحي » الذى اتفقت الأخبار على أنه نقل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة إنما هى وسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وإيناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام . وهم جميعا حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل

وأخطر من ذلك كله أثرا فى إعظام شأن الكعبة أنها المفخرة القومية والحرم الإلهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتقلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخمين - سادة الحيرة - أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدي مضر ومن يواليها . وهو أن سلطان هؤلاء اللخمين حتى آل بهم الأمر إلى الدثور . ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخمين وقضاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشترأت أعناقها زمنا إلى كل ملاذ تقصر عنه أيدي فارس والروم

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم . ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس . قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ والحضارة ومحل العلم والصناعة . حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التى يتميزون بها فى عرف علماء الأجناس البشرية . فإذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربى بين العناصر عامة من أقاربه الساميين إلى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والهاميين . ثم تتجلى فيهم - دون سائر الأمم - تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأديان والثقافات ، وهى

العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم
تحدياً نبوياً ، وتحدياً ربانياً ، من معجزات الإله التي لا تتسامى إليها قدرة
البلغاء في أمة اللسان والبيان

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين
إلى بحث عن مجهول أو معلوم . فما يجيء الكتاب بهذه المعجزة لأمة حلت
من ماثورات البلاغة في شعرها وجوامع كلماتها . وما هو بجائر عقلاً أن
يتحداها القرآن وهي لا تعرف من كلامها شيئاً يتجه إليه ذلك التحدى
وتدرو عليه الموازنة في عرف الخبراء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم أن
القرآن نزل في قوم لهم بلاغة موروثه يتناقضونها ولا يجهلون أعلامها . وأما
القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وإنما اصطنعها الرواة
اصطناعاً بعد الإسلام سنداً للقرآن ودفعاً للشبهات عنه بين المؤمنين به -
فليس من القياس المستقيم في مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين . وما
كان الجاهلي الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك في فصاحة القرآن ثم يأتي
المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن إلا بكلام يخلقه خلقاً لينسب إلى
أولئك الجاهليين . ولقد حدث نقیض ذلك في كثير من الشواهد على
صحة اللغة وسلامتها . فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه
ويبتغون له سنداً لا وراء فيه

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية - وليست هي بالضعيفة -
فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه وأخبار بنيهِ . وأن
ينسى لغة سمعها في حياته أو سمعها أبوه قبل مولده . فما كان جيلان أو
ثلاثة أجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة
ورواية الأخلاف عن الأسلاف . وأنه ليمتنع أو يستحيل أن ينشأ الإسلام

في جيل يجهل اللغة التي تنسب إلى شعراء المعلقات وأقدمهم لم يسبق جيل الإسلام بأكثر من مائة وخمسين سنة ، وفي هذه السنين خاصة توحد حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود في حساب النسيء . فكان جنادة بن عوف ناسئاً عند ظهور الإسلام ، وسبقه أبوه عوف بن أميه وسبقه أبوه أمية بن قلع وسبقه أبوه قلع بن عباد . وسبقهم آخرون إلى عهد القلمس من بني كنانة ، فهم في تاريخ معلوم متسلسل قبل الإسلام بأربعة أجيال

ومن فهاة المستشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيونه غير اللغة والأنساب ، وكلهم يتحذلقون على العلم في شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربي أو الإسلامى من أقدم عهوده ، ثم يأتي العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد أصبح التخريف حقاً هؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق إلا اتهام كل رواية عربية أو إسلامية بالتخريف

فن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عاداً وثموداً وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفي الجراف . فما لبثوا طويلاً حين تبين لهم أن عاداً (Oadita) وثموداً (Thamudida) المذكورتان في تاريخ بطليموس وإن اسم عاد مقرون باسم أرم في كتب اليونان ، فهم يكتبونها « أدراميت » Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد أرم ذات العاد . . . وعثر المنقب موزيل التشكى Musil⁽¹⁾ صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار

(1) Northern Hejaz by Musil.

هيكل عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه القليس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها . ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » . . . ويتواتر الخبر عن الجدرى الذى تفشى في منتصف القرن السادس للميلاد فيذكره بروكوب (Procobe) من وزراء القسطنطينية . ويروى الرحالة بروس (Bruce) الذى زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى . ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بحيل واحد . بل أقل من جيل

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب . وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبی هو أيضا تحريف في زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقي من يدحضه من المؤرخين الأوروبيين المعاصرين . فكتب كرزويل تحقيقه الذى يقول فيه « إن العالم ليونى كايثانى يذهب إلى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست إلا خرافة من نسج الخيال . فالיום ثبت لنا جليا بعد ما أوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشى في سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التى كانت تحلى باطنها وقيام معمار حبشى ببنائها - وهى جميعا حقائق ممتاسكة آخذ بعضها برقاب بعض - صدق

رواء المؤرخين الذى قصوا أخبار هذه العارة وصحة ما ذهبنا إليه وبطلان ما يدعيه كما يتانى من اختراع هذه القصة وتلفيقها»^(١)

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوز بها مداها ، فحسب الناظر فى التاريخ أن يفهم منها أن إخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لاتدحض جملة واحدة ، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دواعى إدحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة ، فأما الكذب الذى يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذى هو أهون وأضر من التخريف .

* * *

إن الحوادث الكبرى تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة ، وتوحى إلينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها إلى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استجاشت العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير .

والإسلام قد استصنى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله فى الوحدة القومية وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لا قوام لها بغيرهما على تساند واتفاق : وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صالحا لظهور الدعوة الإسلامية .

إلا أن معجزة الإسلام فى جميع مقدماته ونتائجها إن هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات ، فإن هذه العصبية اللغوية

(١) المجلة التاريخية المصرية ، عدد اكتوبر سنة ١٩٤٩

الدينية قد آلت في يد الإسلام إلى دعوة إنسانية عالمية لاتنكر شيئاً كما تنكر العصبية الجاهلية ، ولاتعرف رباً غير رب العالمين ولا قسطاساً غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشي والحبشي والعربي والأعجمي وعتره النبي ومن ليست بينه وبين النبي لحمه غير لحمه الإيمان . .

ونعود فنقول إن شأن اليهودية في توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها في الجزيرة العربية . فما لانزاع فيه أن أناساً من اليهود قدموا إلى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمس عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الأنباط وعرب الحيرة وبادية الشام ، وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحلق بها أدعياء العلم من محترفي التبشير والاستشراق .

المسيحية في الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل إلى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل إلى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين ، ولم يأتمن قوم بلسان غير اللسان العربي كما حدث في هجرة اليهود ، ولكنها شاعت بين قبائل من العرب في جيرة الدول التي سيطرت على أطراف الجزيرة ، وهي بيزنطية وفارس والحبشة ، وكان لمذهب العاهل القائم بالأمر في دولة بيزنطية أثر كبير في توجيه النحل والمذاهب في بلاده وبلاد أعدائه . وقد حدث في مدى قرن واحد أن العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ثم دانوا بها على مذهب وجاء من بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة . فمن شاء أقام مع العاهل في

بلاد طائعا له أو مداريا لأمره وإلا ففى بلاد أعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه وينطلق فى تسفيه العاهل وشيعته غير ملوم ولا ممنوع .

وأقلت إلى الجزيرة العربية آحاد من كل نخلة مسيحية غضب عليها عاهل القسطنطينية ، فهاجرت إليها فئات متفرقة من أتباع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الأنطاكي وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين .

وكان نسطور بطرقا للقسطنطينية ينشر مذهبه بياس الدولة ثم عزل وتعقبه خصومه بالنفى إلى أرض النوبة ، ومحور مذهبه أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت فى السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله ، وكان الأنطاكي يناقض تفسير الكتب الدينية بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص فى فهم معانيها ومسائلها الغيبية . وكان آريوس يقول إن الكلمة هى واسطة الخلق ويقول أوريجين إنها مخلوق محدث له الشرف على سائر المخلوقات ، وإن هذه الكلمة تجسدت فى السيد المسيح فظهرت على مثال الإنسان ، وآخرون يقولون إن جسد السيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادى الذى يحكى جسد الإنسان ، وإنه فى لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع ، وصيحته عند الصلب لم تكن « ربى ! ربى ! » بل كانت : قوتى ! قوتى ! كما ورد فى بعض النصوص .

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين فى الحجاز من السوء والضلالة ، فيقول فى مقدمته للترجمة « من الحق أن ما لم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال فى صدر المائة

الثالثة للميلاد قد اضطركثيرين من نصاراها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التي تنصرت حمير وغسان وريعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيئ وقضاعة وأهل نجران والحيرة . . . ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان . . يدعى أحدهما أسقف العرب بإطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء ، وثانيها يدعى أسقف العرب التغليين ومقامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم »

إلى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انقضاى المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لاتكاد تنقضى وانتقص حبلها بمباحكات الآريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتعنن بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سبباموجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد إليها جماعة القسان والأساقفة ويتأحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا إلى هواه . ثم إن نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطط

يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس في المشاحة على منصب الاسقفية - أى أسقفية روته - مأفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما . . وكان اكثر ماتنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسهم ولاسيا القيصر قسطنطينوس فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجايز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية هذا ماكان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب . أما في بلاد هذه الأمة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك . . . فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنتشر معه في اليوم الآخر وقيل إن أوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لانقول نشأت فيها ؟ ! فن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضافورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمي أصحاب هذه البدعة كليريين . . . وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لجأوا إليها هربا من اضطهاد القياصرة . . . »

فالحالة التى تمثلت بها النصرانية في جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحبط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التى يعود إليها الفضل فيما تقبله وتأباه ، ولافضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح في سائرها وترمى الذين يتبعونها بالكفر والضلال .

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعا كما جاء في سورة المائدة عن طوائف اليهود والنصارى .

قال عز من قائل : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرون عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

هذه حالة النصرانية في الحجاز كما عهدتها النبي عليه السلام قبل مبعته ، وهى بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لامن مقدمات التمهيد والتحضير ، سواء كل ذلك في أمر النبي أو امر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتخفين أو المتحشئين .

وينبغى الاحتراس من قول القائلين إن أحدا من أولئك المتخفين أو الخنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية أو اليهودية ، فكل ما يصح من أخبار الخنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الإيمان بالآله الواحد أهدى وأحكم من الإيمان بالنصب والأوثان ، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقا حين قال عن أشهر هؤلاء متحشئين

زيد بن عمرو بن نفيل أنه « وقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية فارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم . . . وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يامعشر قريش ! والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك ولكنى لا أعلم »

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذى قصدت إليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذى نطق النبی عليه السلام باسمه أمامها ، فإنه كان يطيل القراءة فى كتب اليهود والنصارى ويعلم أن عبادة الاصنام ضلالة فيلتمس الهداية فى غيرها ولا يستوفى العلم ولا الإيمان بأى الديانتين ، وغاية الأمر فى نصرانيته كما قال ابن هشام أنه « كان نصرانيا تتبع الكتب وعلم من علم الناس » . . . وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه ، أحدهم ابن نفيل . أنهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه فى يوم عيد فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شىء . . . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . يا قوم ! التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شىء »

قال ابن هشام : فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفة دين إبراهيم .

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون إنهم لم يعبدوا الأرباب والأوثان إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ، وسرى فى الكلام على الكعبة أن الحقبة التى سبقت بعثة النبی شهدت طوائف من المجتهدين فى العبادة منهم طائفة الحمس التى اختصت الحرم وحده بالتقديس

وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها أحد من قبلهم في الجاهلية . فقد كانت الحقة إذن حقة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منها لتستأثر بضمير صاحبها أو تغنيه عن النظر في غيرها . وقد كانت هذه الحيرة في جانب من جوانبها على الأقل أثراً من آثار الجامعة القومية أو أثراً من آثار الشوق إلى ديانة جامعة غير ذبانة الأصنام المتفرقة لكل قبيلة من القبائل صنم تنفرد به أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة .

فقد كانت القبائل تعبد أصنامها ولم تكن بها حاجة إلى الاشتراك في عبادة واحدة تشملها . فلما وجدت هذه الحاجة لمسوا النقص في كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله » قبسا يقرهم من الله ومن ديانة رب البيت وبانيه إبراهيم عليه السلام . وقد يما نسب الحجازيون أنفسهم إلى إسماعيل بن إبراهيم ونسبهم إليه أصحاب التوراة وعلماء الأنساب .

وان اصدق وصف للحالة الدينية في عصر البعثة الدينية أنها حالة نقص في كل نحلة وكل عقيدة . فلم نعلم من أخبار الوثنية قط أنها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ولم تكن الحدود بين النحل والعبادات الدينية متحجرة مستقرة على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحويل . ولم يكن المتدين منهم جميعاً يتنبه إلى الابتداع في أمر الدين إلا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تتقلب المسألة من تصرف في الشعائر والآراء إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب . وتصطدم البدعة الجديدة إذن بالعصبية القومية كلها في

إبان اليقظة والطموح ، وهذه الصدمة لم تفاجئ أبناء الجاهلية قط من نحلة يحكونها أو يستجيبون لها بحكم المسيرة والمجاعة ، وإنما فاجأتهم من دعوة الإسلام وحده فتمردوا عليه ذهابا مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذيادا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضماير والأفكار .

فالوحدة القومية مهدت للإسلام إلى حد محدود ، ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة إلى قوة أكبر من قوة القومية التي اعتر بها المشركون وخططوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة في التراث القديم .

فبالوحدة القومية تمهدت طريق الإسلام ، وبقوة الإسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الإنسان وعبادة رب العالمين .

ولم نذكر فنيا تقدم عاملا من أشهر عوامل هذه الوحدة القومية وهو يوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفرس وارتجت له الجزيرة العربية بالفخر والأمل في مطلع العصر الإسلامي وعند ولادة النبي عليه السلام .

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس في مقدمة العوامل الكبرى ، ولانساه هنا لنحسبه منها ولانقدمه عليها ، فلو لم يكن يوم ذي قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التي لحقت بها في أوانها . ولعل وثبة ذي قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الأولى على تخوم الدولة الفارسية ، فلما تنازع

أمراء الحيرة وشواهين الدولة غلبت الدولة على الإمارة وقضى الأكاسرة
والشواهين على المناذرة والنعمانين ، ولما التقت سطوة فارسية ونخوة
عربية في الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء .

كانت ذوقار وليدة النخوة العربية ولم تكن أمها التي ولدتها ، وإنما
كانت أم الأمهات في هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان .

* * *

النبوة المحمدية أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود إليها في الكلام على الكعبة المكية .
ونرجع بتاريخنا إلى أوائل النبوات لنمضي بها إلى ختامها بالرسالة
المحمدية ، فإن تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة
كما بعث بها خاتم الأنبياء

من قديم الزمن وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع
المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من
قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التي تبشر بالخير
والنجاح أو تنذر بالشر والخيبة .

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها
أحدهم دون غيره ، فكل ماعرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو
علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء
إلى الأبناء .

لكن الرغبة في استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من
هذا القبيل ، ولا سيما المجهول الذي يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير
المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم
والمترقبون لروحهم في ليلهم ونهارهم ، فرمما عرض للقبيلة عارض جسيم
لاتعرف وجهتها فيه ، ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها

على صورة من الصور . أو كلمة يسميها من عابر طريق يستوحى منها
البشارة أو الإنذار ، فإن شئون الفرد غير شئون القبيلة . وليس لفرد من
عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم في
معابدهم ومحاريبهم . مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب
وورث هذه الخدمة من آباءه وأجداده في أكثر الأحوال ، ولا مع وجود
الكاهن الذى تربى من صباه في مهد العبادة ليقترّب من الأرباب
المعبودين ويفقه عنهم من إشاراتهم ومضامين وحجهم ما يخفى على سواه .

ومن قديم الزمن أيضاً وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرأى »
المهم الذى يختاره الإله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده . ولم يكن
بين عمل الكاهن وعمل الرأى تناقض في مبدأ الأمر ، لأن كلام الرأى
كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى « النفاية » من خلطه
واضطرابه إذ كان الغالب على الرأى أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو
« الجذبة » أو « الصرع » فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس
بالويل والثبور ، ويقولون كلاماً لا يذكرونه وهم مفيقون . فيحسب
السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة
والتبصرة . وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الإلهى في الطب
القديم .

وكان اليونان يسمون الرأى مانتى Mantis ويسمون المعبر عنه أو
المفسر لكلامه بروفيت Prophet أى المتكلم بالنبأية عن غيره ، قبل أن
تطلق هذه الكلمة على النبی بمعناها المأثور في الأديان الكتابية ، ولكن
الفرق بين الرأى والكاهن لم يزل ملحوظاً في الأزمنة المتأخرة كما كان

ملحوظا في الأزمنة الغابرة . فالكهانة وظيفة والرؤية طيبة . والكاهن يقصد مايقوله والرأي يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية في شخص واحد ويظل العمالان مختلفين . فما يقوله الكاهن قصدا غير مايقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه .

ويصطدم العمالان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فإن الكهان في هذه الحالة يجمدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الخطوة عند ذوى السلطان في بلادهم ، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرأي المتطوع ، فيثور الرأي على الكاهن ويتهمة في أمانته وإيمانه ، ويحدث بينها ماحدث بين « أمصيا » كاهن بيت إيل وعاموس الرأي ، إذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له : « أيها الرأي اذهب . . اهرب إلى أرض يهودا وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا . وأما بيت إيل فلا تعد تنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك »

* * *

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت في سائر الأمم ، ولم يسمعوا الرأي عندهم باسم النبی إلا بعد اتصالهم بالعرب في شمال الجزيرة . . . إذ وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية كما قلنا في كتاب أبي الأنبياء « غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى . . . والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد

اتصلهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون
المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرأى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة
النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار . . . وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة
أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الحليل عند بيت
المقدس . . وهم يثرون وبلعام وأيوب ومنهم من يقال إنه ظهر قبل اثنين
وأربعين قرنا وهو أيوب »

ويعزز هذا الرأى ما جاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية^(١) فى التوراة
عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر Holscher
وشميدت Schmidt فإنهما يرجحان أن كلمة النبوة بما استفاده العبريون
من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين .

النبوة والجنون

عرف الأقدمون من العرب والعبرين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه
السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة
واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة
بالغيب ، وينظرون منها الكذب كما ينتظرون منها المصدق شأنها فى ذلك
كشأن غيرها من الدلالات على المجهول .

فخلطوا بينها وبين الجنون ، كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة
والتنجيم والشعر ، وأضعف من شأن النبوة عند بنى إسرائيل خاصة أن
الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد فتناقضوا وأشار

(1) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson.

بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون في المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التي تأتي أحيانا بعد نسيان ماتقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم في مبدأ الأمر عقيدة شائعة بذهول النبي وغيابه عن الوعي في جميع أيامه وفي الأيام التي يملكه فيها الوجد الإلهي على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيوبة والاتصال بالغيب شيء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبي وإقباله بجملته على الله .

ويؤخذ من سفر صمويل الأول أن المتنبيين كانوا يظهرون جماعات جماعات « إذ أرسل شاول رسلا لأخذ داود فأرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وشاول واقفا بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء . . . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صمويل وانطرح عاريا ذلك النهار كله وكل الليل » .

ومن لم تملكه حالة الوجد بريضة النفس على الحشونة والشظف وتعرض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة إلى النشوة أو الغيوبة فينتقل لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عاداتهم من التأويل والتخريج .

وفي سفر صمويل قبل ذلك « أنه يكون عند مجيئك . . إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف

ونأى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر» .

وفي سفر الأيام الأول أن داود ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بنى آساف وهيمان ويدوثون المنتبئين بالعيدان والرباب والصنوج » .

وقد ينعزل بنو الأنبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء في سفر الملوك الثاني : « وقال بنو الأنبياء لأليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب إلى الأردن »

وعلى هذه الحيرة التى كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبى الصادق الذى يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملى عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الإعراض ولم يقبلوا عليهم كل الإقبال : ورجعوا إلى التجربة فى التفرقة بين النبوءات ، وعقيدتهم فى ذلك ماجاء فى سفر التثنية خطابا لموسى عليه السلام : « وأقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمهم فيكلمهم بكل ماأوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطلبه . وأما النبى الذى يفرض عليكم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصرفهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه » .

وعلى هذا انقسم المنتبئون أقساما ثلاثة . نبي يتكلم باسم الرب ، ونبي يتكلم باسم آلهة أخرى ، ونبي يتكلم باسم رب إسرائيل ولكنه يطغى بما فى قلبه على وحى ربه ، فيخلط بين مايقوله هو بلسانه وبين مايجريه الله على لسانه ليلبلغه إلى قومه .

والمرجع فى التفرقة بين الأنبياء إلى صدق النبوءة ، فإذا امتد الأجل بالنبي حتى يشهد القوم صدقه فى نبوءة بعد أخرى فذاك هو النبى المختار الذى يطاع وتكتب عنه النبوءات ، وربما قضى صدر حياته مهانا منبوذا بين قومه كما حدث للنبي أرميا الذى أصبح عند كتابة العهد القديم فى زمرة كبار الأنبياء ، وقد حكى ذلك فقال فى الإصحاح العشرين : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فقبلت . . . صرت للضحك كل النهار . . . وكلهم قد استهزأ بى . لأنى كلما تكلمت صرخت . . . ناديت ظلم واغتصاب . . فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه ، فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى . . »

نبوءة الأحلام والرؤى

ومن الحق أن نذكر أن المنتبين لم يتطلعوا جميعا إلى مكان النبوءة العليا - نبوءة القيادة والتعليم والتشريع - ولم تكن نبوءة الكثيرين منهم مستمدة من شىء غير الأحلام والرؤى وجيشان الشعور والحاحه على صورة واحدة ، يعجز المنتبئ عن صرفها فيجهر بها صارخا كما فعل أرميا كأنه يستغيث من لاعج فى نفسه لايقوى على كتمانها . ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تتكرر فى منامه ، فيفضى بها إلى قومه مخافة الكتمان وحذرا من أن يكون هذا الكتمان نكوصا عن الدعوة وممالة على العصيان والفساد ،

وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحى من هائف مسموع أو شخص منظور فى حالة اليقظة ، ومن هؤلاء القليلين صمويل الذى « سمع قبل أن ينطقى سراج الله وهو مضطجع فى تابوت الرب صوتا يدعو » ويعود إلى دعوته لتوكيدها ، ومنهم دنيال الذى قال إن « الرجل جبريل الذى رآه فى الرؤيا ابتداء يلمسه عند تقدمه الماء ويتكلم معه ويقول له إنه خرج ليعلمه الفهم ويرشده » . . ومنهم من كان يستعظم الدعوة حين يحسها فى صدره فيقول كما قال أشعيا : « إني هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين » إلى أن قال « إن عيني قد رأنا الملك رب الجنود فطار إلى واحد من السرافيم ويده جمره قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها ففى وقال إن هذه قدست شفتيك فانتزعت إثمك وكفرت عن خطيئتك » .

وجاشت نفس أرميا وهو صبى بخواطر النبوة ثم ألقى إليه أن الرب يقول له : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعوب » فاستكثر النبوة على سنه وقال فى صلاته : آه ياسيد الرب من اين لى أن أعرف الكلام وأنا ولد ، قد الرب يده ولمس فمه وقال : هاقد جعلت كلامى فى فك ، فانظر ، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس .

ولقد خشى الأنبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التى يدعيها المتنبيون ، لأنهم عرفوا عجائب السحر فى مصر وبابل وأشفقوا من فتنها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التى يقتدر عليها السحرة وأتباع الأرباب المحرمين

فكان من وصايا سفر التثنية التي تنسب إلى موسى عليه السلام « أنه إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدوها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم . لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيف من وراء الرب . . »

إلا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل في عهد أنبياء بني إسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجري على أيدي الرسل كما جاء في سفر الأعمال ، وكان بولس الرسول ييكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التي صنعها بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات . . . وكان إلى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة بكل خديعة الإثم في الهالكين .

وجاء في الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقتدرون على ذلك إلى آخر الزمان . . « ومن فهم النبي الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فإنهم أرواح شياطين صانعة للآيات تخرج على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم » .

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل إسرائيل ظهر فيهم مثات وألوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الأكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة في جميع الأديان ، ولم

تكن قبائل البادية ولا أهل القرى ليضيّقوا بتكاليف معاشهم لأنهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والأدم وبالحشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف ، وربما استراح إليهم الدهماء لأنهم يفرجون عن صدورهم بالاجترأ على كبرائهم وسرواتهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربما حمد لهم الأمهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم ويفوهون أمامهم بأطراف من الأقاويل يفسرون رموزها بما يطيب لهم ولا يشعرون منها برهق شديد لأنهم لا يحملون مؤنتها إذا أخذت مأخذ الجدد والجسامة ، بل ترتفع إلى أيدي ولاية الأمر ورؤساء الدين والكهان والحكام فيوفقون بين نقائصها أو يستخدمونها في تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المتنبيين ولا يقولونه بالسننهم ، خوفا من تبعاته أو من قبيل الحيلة للتراجع إذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه .

كان خطب المتنبيين من هذا القبيل ميسورا للقبائل ورؤسائها ، حتى إذا ظهر الأنبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض كل يوم ، لأنهم لا يظهرون إلا إذا احتاجت القبائل إلى تغيير شامل في معيشتها وأخلاقيها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة إلى بلد ناء أو قتالا مع أهل البلد الذي هم فيه أو مع أهل جواره ، وليست خطتهم مع المتنبيين الصغار بمجدبة مع هؤلاء الأنبياء الكبار دعاة التغيير الشامل وأصحاب الحق في القيادة المطاعة ، وإنما الحطة المجدية هنا هي الانقياد للدعوة التي يخشى على من يعصيا أن يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومه أجمعين فلا يلبث النبي الكبير أن ينزل في منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو إليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان .

دليل الأمان

إن مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الأنبياء الكبار هي أعلى ما ارتفع إليه نظر الأقدمين من بني إسرائيل وغيرهم إلى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معلوم ، ويطلبون منهم ما لم يطلبوه قط من ذى ثقة أو مقدرة بينهم ، فأنتهت هذه المطالب كافة إلى غاية واحدة : وهي أن النبي « دليل أمان »

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكنهم يقبلون تعليمه وهدايته لأنه دليلهم إلى الطريق الأمين .
ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ، ولكنهم يستمعون له لأنه يرحمهم عن طريق الغضب والنكال .

ويجب عليه قبل كل شيء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولا يقدرّون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال .

ولبثت مهمة النبي عندهم معلقة على دلالة الأمانة في المكان المجهول والزمان والمجهول ، ولكنها دلالة الأمان من أخطار محسوسة تشبه تلك الأخطار التي تحذرنا منها المراسد ومكاتب التأمين ، ففها أخطار الخراب وأخطار الوباء وأخطار المصائب في الأقارب والأعزاء .

ولم يبلغ أحد من أنبياء بني إسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذي ينسب إليه بنو إسرائيل ، أو موسى الذي يدينون له بالشريعة ، ثم صمويل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوءات غير المشترعين .

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الأخرى التي لا فكاك منها ، وهي دلالة الأمان بالمعنى المتقدم . أو دلالة الأمان كما يترقبها المرء من المراسد ومكاتب التأمين ، وإن تكن قائمة على الهداية والتعليم .

فمن نبوءات يعقوب يفهم أنهم كانوا يعولون عليه في رصد النجوم ، وأن كل اسم من أسماء الأبناء يشير إلى برج من بروج السماء . ولانستقصى الأسماء هنا بل نشير منها إلى مثلين يغنيان عن غيرهما . وهما مثل يهودا وشمعون ولاوى « فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة . . لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجله حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب » .

وهذه إشارة إلى برج الأسد . وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الأسد أرجولا والآخر أرماع أحد نجوم الدب الأكبر . وأمام الأسد في البروج برج يشير إلى علامة الملك Seonis Rogulus الذي تخضع له الملوك .

أما مثل شمعون ولاوى « فأخوان . سيوفهما آلات ظلم في مجلسهما لا تدخل نفسى . . لأنهما في غضبهما قتلا إنسانا وفي رضاهما عرقبا ثورا . . » .

وهذه إشارة إلى برج التوأمين ، وهو برج إله الحرب « زجال » عند البابليين ويصورون أحدهما وفي يديه خنجر والآخر في يديه سلاح شبيه بالمنجل . . وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذى يتعقبه التوأمين⁽¹⁾

(1) The oracles of Jaehb by Eric Burrows.

وسواء صحت هذه الإشارات إلى الأبراج والنجوم أو كان فيها مظنة للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الأبناء بأسمائهم واضحة لا تحتمل التكذيب .

وموسى الكليم طالبه القوم من إسرائيل وغير إسرائيل فى مصر بقدره على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم ، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه إلى تكليفه أن يهيب لهم الطعام الذى يشتهونه صنوفا بعد صنوف وهم فى واد التيه ، بمأمن من جند فرعون .

واحتجاج القوم إلى علم الغيب فى عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الاتن . . فقال شاول للغلام . . . فاذا تقدم للرجل ؟ لأن الحبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شافل فضة » .

ولم يحفل بنو إسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما حفلوا بنبوءات أرميا وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التى تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الأقوام أصحاب الدول فى وادى النيل وبين النهرين ، وكان الإنباء بالغيب على هذا المثل هو المهمة الأولى من مهام كبار الأنبياء ، وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليدذكروا مصائر أفراد معلومين إلى جانب مصير الأمة كما قال النبى عاموس فى بيت إيل : « أنت تقول لا تتنبأ على إسرائيل ولا تتكلم على بيت إسحاق . . ولذلك قال الرب : إن امرأتك تزنى فى المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل ، وأنت تموت فى أرض نجسة ، وإسرائيل يسبى سببا عن أرضه . . . » .

نبوة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعاً في بني إسرائيل قبل البعثة الإسلامية بنحو تسعة قرون . لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبني إسرائيل خاصة إلى النبوة الدينية . ولم يفهموا النبوءات الأولى ومالحق بها غير الفهم الذى عهدوه فلما ظهرت النبوة الإسلامية لم تكن تكررارة لتلك النبوءات ولا تطورا فيها بل كانت « تنقية » لها من كل مالمصق بها من بقايا الكهانات والدعوات . وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغى أن تكون ونفت عنها مالمس ينبغى لها من شوائب الأوهام ، وأولها أنها مرصد للحوادث يحمى الطريق أو مكتب للتأمين يقارض القوم على الأمان من الأخطار .

ليست مهمة النبى أن يعلم الغيب « إنما الغيب لله » .

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه مايشاء لمن يشاء .

« يسألونك عن الساعة أيا مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يحليها لوقتها إلا هو » .

« قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » .

وآية الآيات مسألة « المعجزات » في الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتنعة إذا أرادها خالق الكون كله وخالق السنن التي يجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على اللجاجة في باطله :

« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

« ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الغيب لله فانتظروا إلى معكم من المنتظرين » .

وقد كان الناس ينظرون إلى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فيهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت ، وكذلك كسفت الشمس عند موت إبراهيم ابنه عليه السلام . فقال الناس إنها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا في ظنهم وهو محزون المفؤاد على أحب أبنائه إليه بل أنكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال : « إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد . . »

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهي هداية الضمير الإنساني في تمام وعيه وإدراكه ، فانهقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديماً على التأثير في العقول من طريق الحس المخدوع .

فليس في النبوة سحر ولا كهانة ولا هي شعر يزخرفه قائله : « إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون » .

ولابد للمؤرخ أن يترىث عند كل وصف من أوصاف الأنبياء الذين كذب بينهم أقوامهم ، لأنها جمعت كل ما قيل عن الأنبياء بين أولئك الأقوام في العصور المتطاولة . فإذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الأنبياء كما عرفهم بنو إسرائيل وأن النبوءات كانت وقفا على بني إسرائيل والمتنبئين غيرهم من الأمم . فمن أين عرفت أحوال الأنبياء والمتنبئين التي وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعا في القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين ويرميه مكذوبه بالجنون ! « أتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » .
ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون »

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون إننا لئنا ركز آلتنا لشاعر مجنون » .

وإذا رموه بالسحر وحده قالوا إنه السحر الكاذب تمييزا له من السحر الذي كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » .

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيوبة - كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الأقدمين . ومن وصفها مخترعا فهذا هو العجب العجيب . ومن وصفها مطالعا فقد استقصاها وزاد عليها ما لم يكن منها ، وهو النبوءة الخالصة لهذا الضمير . . .

إن المتنبيين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفواصل حاسم وأن من المتنبيين في بني إسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع في المحراب ، وعاش القوم بعد أنبيائهم بأزمة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الإنذار بالحوادث والأخطار . فإذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هي الكرامة التي تعلق على هذه الكرامة بين مراتب الأنبياء ؟

إن الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات إذا لم تكن نبوءة للهداية وللإنذار والبشارة : « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عن ربهم . . » .

وهذه هي النبوة المحمدية .

وهذه هي النتيجة التي لم تأت من مقدمتها . أو هذه هي النتيجة التي لم تأت من جميع مقدماتها .

وهذه هي آية العمل الإلهي بين أعمال الناس .

سيد الأنبياء نشأة الأنبياء

إن وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبي التي أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فإذا عرفنا نشأة النبي بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله في هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبي منذ هيأه الله حيث جعله أهلاً لرسالته .

ولكن غرائب التاريخ في أمر الأنبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التي تكاد أن تشمل الأنبياء أجمعين ، وهي الجهل التام بتفاصيل نشأتهم فيهم وأقوامهم ، فلا يحصى التاريخ شيئاً من هذه التفاصيل عن نشأة نبي من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط .

وعلى هذا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم ، ولانستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الأنبياء المذكورين في العهد القديم في مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التي نشأوا والوجهة التي اتجهوا إليها .

مهما يكن من بدءاة الخليل إبراهيم فالأقوال متواترة على زعامته

لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق إلى شماله ومن شماله إلى أرض
كنعان .

كانت مهمته إذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم . وكان عليه
أن يتولى هدايتهم في شئون دنياهم وشئون دينهم ، وبخاصة حين يخشى
الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان .

وينبغي أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الإلهي كان خطرا محذورا
قريبا ممن تعبدوا لجميع الأرباب في الديانات الأولى . وأن إيمان الناس
بالإله في العهود الأولى إنما كان على أقواه إيمانا بحماية الرب الذي يعبدونه
دون سائر الأرباب . فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغتر بقومه وهو يعلم سبيل
نجاتهم . وقد كان إبراهيم الخليل زعيم أسرته الذين هاجروا معه .
فكان عليه أن يهديهم الطريق . وأن يهديهم كل طريق في هجرة الجسد
والروح .

وتتفق الأقوال على أن إبراهيم خالف أباه حين أنكر أرباب القوم
ودعا قومه إلى الكفران بالأصنام . وليس في هذا ما ينفي زعامته على
الذين هاجروا معه من أسرته وذوى قرياه وتابعيه ، فربما كان الخلاف
على الإقامة والمصانعة وإرضاء ذوى السلطان . بشيء من المداواة .
فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوى من هذه الاستكانة . وقد
رأبنا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها في سلالة إبراهيم حين
يؤمرون بعبادة إنسان أو إقامة الصنم مقام الإله الذي في السماء ، ففعل
المفترق بين إبراهيم وأبيه إنما كان على عبادة جديدة أقحمت على القوم

من هذا القبيل . فنجنا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل في طريقه . وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة فهذه النبوة مهمة زعيم أمين .

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة . ولكنه يذهب بعيدا حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة « أتون » وكفروا بعقيدة آمون . فلما انقلب الكهنة على الوجدانية التي جاءت بها عقيدة أتون تحول موسى إلى المستضعفين من اليهود في أرض مصر لينشر بينهم هذه العقيدة في الإله الواحد . وأضاف إليها ماتلقاه من العلم بدين « يهوا » حين نجا بنفسه إلى صحراء سيناء والتقى في أرض مدين بنبي الصحراء .

ألف فرويد المشهور - وهو إسرائيلي - كتابا خاصا عن موسى والوجدانية *Moses and Monotheism* حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام إلى الأسرة المصرية المالكة . وقال إن اسمه نفسه يدل على أصله المصرى لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التي تشبه اللواحق في أسماء رعموسيس وتحتموسيس وأموسيس . وقصته في الماء على رأى فرويد تقابلها في البابلية قصة سراجون الملك الذي وضعته أمه على حافة النهر وجعلت له مهذا عائنا من السلال .

وقد توسع فرويد في تخمينه فقال إن أدوناي التي أطلقها العبريون على الإله إنما هي أتون أو أتوم المصرية . وأن موسى عليه السلام وفق بين

عبادتين ليقنع بنى إسرائيل بدعوة أخناتون ، وإلى هذا يرجع الاضطراب فى النصوص العبرية القديمة .

ولست طريقة فرويد فى تخمين التاريخ إلا أسلوبا آخر من طريقته فى كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيرا لبواطن المريض ، وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب فى استكشاف الأمراض الباطنية ولكن تخميناته فى سيرة موسى عليه السلام لاتعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول ، وليس لها سند من الآثار المصرية أو من الآثار العبرية ، وفى وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتى بعشرين فرضا متضاربا من فروض الخيال .

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بنى إسرائيل ، بل فيها إنكار هذه الزعامة بالقول الصريح . لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له أحدهما : « من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ أعلك تريد قتلى كما قتلت المصرى بالأمس ؟ » .

ويرجع برستيد - أحد الثقاق فى التاريخ المصرى القديم - أن موبى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكتونات علم الكهنة والحكام ، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الأمر لعله كان يستخدمها فى الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم ، فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا إليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسوء الحال ، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الأمر بمشيتة الدولة ومطالب بنى إسرائيل .

وعلى خلاف الصورة التي تخيلها « ميكال أنجلو » للرسول العظيم
يؤخذ من أوصافه أنه كان وديعا « حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين
على وجه الأرض » كما جاء في كتاب العدد من العهد القديم ، وأنه
كان يشكو حبسة في لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء في سفر الخروج :
« لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين
كلمت عبدك ، بل أنا ثقیل الفم واللسان ، قال له الرب من صنع
للإنسان فما ؟ . أما أنا هو الرب . فالآن فاذهب وأنا أكون مع فك
وأعلمك ماتتكلم به . . »

ولم يخطر له بادئ الرأي أن يقود قومه في خروجهم من مصر ، ولم
يكن على أهبة للرسالة الدنيئة قبل هجرته إلى صحراء سيناء ولقائه في
أرض مدين للنبي العربي الذي يرجح الأكثرون أنه هو نبي الله
شعيب . ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبي علوما
شتى في شئون التبليغ والقيادة ، ولم يزل يتعلم منه كما جاء في كتب العهد
القديم بعد عودته إلى مصر وخروجه منها مع قومه ، وكان يثوب إليه كلما
ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم أو يضيق ذرعا بما
يسومونه من شهوات الطعام ولدد الخصومة والمنافسة بين العشائر على
صغائر الأمور .

فالسنوات التي قضاها إلى جوار نبي مدين كانت هي فترة الاستعداد
والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لإخراج بني إسرائيل من
مصر وإحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان ، ولابد أنه قد
جاس خلال تلك الصحراء ووطئ بقدميه أماكن الرحلة التي لابد منها
قبل المقام على استقرار في ذلك الجوار .

ولاشك أنه كان يصغى إلى نبى مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته . وأنه حكى له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان ، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المدينى ومن هداية الوحى والإلهام .

فلما عاد إلى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لاحيلة له فى البقاء ، ودعاهم إليه باسم الله فأطاعوه بعد لآى ومجاهدة ، ولم يظهر من سلوكهم معه أنهم خفوا إلى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة وإقناع عسير .

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية ، فإنهم أسفوا على ماتعودوه من المراسم الدينية فى مصر وودوا لو أنهم يعودون إليها أو يعيدونها منسوخة ممسوخة فى الصحراء ، وخطر لهم أن الإله الذى دعاهم موسى إليه إنما غر بهم ليهلكهم ويعنى على آثامهم ، واحتاجوا فى كل خطوة إلى توكيد الوعد بالأمان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار

فهمة الرسالة الموسوية هذه العوارض الطبيعية لاتفهم إلا على خطوة واحدة ترتسم أمامنا كما كانت لأنها هكذا ينبغى أن تكون هجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى إسرائيل ، قبل غيرهم بالإبلاغ عنه ، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولادة الأمور .

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبى مدين ولمح بعينه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان ، وطاب

له مقام البادية فلم يستعظم المشقة في دعوة قومه إلى مثل هذا المقام .
تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر إلى أرض كنعان .
وصرف الجهد الذى لا جهد بعده فى إقناعهم باسم الإله الذى اختارهم
للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الإله عند أيسر دعوة وبغير إغراء
على الترك فى أكثر الأحيان .

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهد فى تحويل قومه من
العبادة التى كانوا عليها إلى العبادة التى دعاهم إليها .

فمن هذه التحذيرات فى سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلهتهم
قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضا أفعل هكذا . لا تعمل هكذا
للب إهلك لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب »

وحذرهم من الأنبياء « فإذا قام فى وسطك نبي أو حالم حلما
وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها
قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدوها فلا تسمع لكلام ذلك
النسى . . »

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلا :
« نذهب ونعبد آلهة أخرى . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق
عينك عليه بل قتلًا تقتله »

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللثام إلى عبادة
أربابها : « فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل
مافيا مع بهائمها بحد السيف »

وإذا سمع عن أحد من إسرائيل « أنه يذهب ويعبد آلهة أخرى

ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء . . . فأخرج ذلك
أو تلك المرأة . . . وارجمه بالحجارة حتى يموت »

* * *

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال - تأييدا أو تفنيداً - لنسبة الكتب
الخمسة الأولى من العهد القديم إلى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها
إليه وبعضها إلى الأنبياء من تلاميذه وتابعيه ، فإن أنبياء بني إسرائيل
جميعا من عهد موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من
مهمة غير هذه المهمة ، وهى تحذير بني إسرائيل من عبادة إله غير الإله
الذى ذعاهم إليه صاحب الشعيرة وتبكيهم كلما انحرفوا عن طريقه
واستبدلوا بملته ملة أرباب آخرين ، وهؤلاء إلياس وأرميا وحزقييل من
أشد النعاة على بني إسرائيل فى هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير
هذه الرسالة ، ولم يكن عم إلياس إلا أن يحذرهم عاقبة « إغواية الرب »
إذ كان عمرى قد ملك على إسرائيل . . . وعمل الشرفى عيني الرب
وبلغت سيئاته أضعاف سيئات من قبله وسار فى جميع طريق يربعام بن
نباط وفى خطيئته التى جعل بها إسرائيل تخطف لإغواية الرب
بأباطيلهم . . . وملك آخاب بن عمرى فاتخذ ابنة ملك الصيدونيين
زوجة وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا له فى بيت البعل الذى
بناه فى السامرة »

ولم تكن رسالة أرميا إلا كهذه الرسالة حيث أنذرهم فى بعض مراثيه
قائلا : « . . . إنكم تبخرون للبعل وتسرون وراء آلهة أخرى لم
تعرفوها . . . الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجن

العجين ليصنعن كعكا للملكة السموات ولسكب السكائب لآلهة أخرى كى يغيظونى . . . » ويمضى النبى منذرا متوعدا ناعيا على عشايرهم جميعا « أنهم أبوا أن يسمعوا كلامى وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا وبيت إسرائيل عهدى الذى قطعته مع آبائهم »

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيال حيث يقول لشيوخ إسرائيل : « اننى آخذ بيت إسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عنى بأصنامهم . . . وإن كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغربين فى إسرائيل يرتد عنى ويصعد أصنامه إلى قلبه . . . ويحىء إلى النبى ليسأله عنى فأنى أنا الرب أجيبه بنفسى وأجعل وحى ضد ذلك الإنسان وأجعله آية ومثلا وأستأصله من وسط شعبى . . . فإذا ضل النبى وتكلم كلاما فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى إسرائيل . . . »

فشعب بنى إسرائيل لم يستغن قط عن الإقناع المتتابع للإيمان بالإله الواحد الذى دعاهم إليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الإقناع لحمله على النجاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل فى الطريق يحتاج إلى تجديد هذا الإقناع فى كل مرحلة ويحن إلى العودة بعد كل نقلة ، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وإيوائه إلى القرار عند أرض كنعان .

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها الذى لامصدر لنا غيره هى التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة إلى موسى والكتب التى نسبت إلى الأنبياء من بعده ، فخلاصة

هذه النشأة أن كليسم الله تربي في مصر وخرج منها خفية بعد مقتل
المصري الذي صرعه موسى انتصارا لرجل من بني إسرائيل ، ولم يكن
خاطر الخروج ببني إسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوى الزعامة بين
عشائر قومه ، ولكنه عاش في البرية إلى جوار الهداية النبوية في أرض
مدين ، وراض نفسه على حياة النسك والاستلham وهو يفكر في أسرته
وقومه ويزور الأرض من حوله ، وتلقى الدعوة الإلهية بعد طول التدبر
والرياضة فعاد إلى مصر لإقناع قومه بدعوته وإقناع السادة الحاكمين بها
أن تيسر له ذلك دفعا للخطر عن ملته وعقيدته . ولم يكن يرضيه فيما بدا
من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بني إسرائيل حيث استطاب
البقاء . لأنهم رأى لهم مصيرا في البادية أكرم من هذا المصير ورأى أن
العقيدة التي دعام إليها كفيلة بمحاجتهم من الضياع بين العشائر والملل في
أرض البادية أو أرض الحضارة .

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة في حياة الكليم عليه

السلام

وقد عرضت لنا في خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوته النبوية
التي أشارت إليها كتب إسرائيل من بعيد ولم تذكر بشيء من التفصيل في
غير القرآن الكريم . ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك

لتوافق الذي يغني عن كل دليل على صحة الأصل الأصل

قلنا عن مدى القوافل في كتابنا عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل :
« أما الأسباب السيئة التي أوجبت قيام الدعوات النبوية في تلك المدن
فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ في غيرها بهذه القوة وبهذه
الكثرة . وأقوى تلك الأسباب مساوئ الاحتكار والإستغلال . فإن

تجارة العالم إذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك سادت في كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة واصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبيعون في أساليب المعاكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة . ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس في قدرة دولة أن تحاربهم إلا بالاشتباك في حرب مع دولة أخرى أو بانفاق أموال في الغزو والحصار تريد على الأموال التي يغتصبها المحتكرون أو يفتلسونها . وقد يغلو هؤلاء المحتكرون في الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المخازفة بالغارة مرة تريحها من مرات

« كذلك صنع أنتيجون خليفة الإسكندر مع أهم هذه المدن في زمانه وهى سلع - أى البتراء - فجرد عليها حملتين ولم يفلح في غزوها وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى . ولم يبق من حولها غير مدن صغار »

إن آفة مدين هى هذه المدن على مدرجة الطرق وأن قصتها في القرآن الكريم هى قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق . وليس أدل على حدوثها من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت في مواضع مختلفة من السور وإحداها سورة الأعراف

« وإلى مدين أخاهم شعبيا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من الله شيء »

قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال المأء الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كناكارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال المأء الذين كفروا من قومه لئن اتبعت شعيباً إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسئ على قوم كافرين «

« * * *

فرسالة شعيب عليه السلام إنما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخذاع في البيئة التي تعرضت له بحكم موقفها من طريق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم . والأغلب على التقدير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسائل التي تصلحها في إبان الحاجة إليها . ومنها رسالات هود وصالح وذى الكفل وإخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا أخبارهم في كتاب

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة في بني إسرائيل. بظهور عيسى عليه السلام . ولا نعرف عن نشأته في طفولته غير القليل ولا نعرف شيئا عن أيامه من الثانية عشرة إلى الثلاثين مبعثه إلى قومه من بني إسرائيل . ولكن نشأة العصر كله من وجه الاستعداد للنبوة ، معروفة ببعض التفصيل كما أشرنا إلى ذلك في كتاب عبقرية المسيح

ففي عصر الميلاد : « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يتربص الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه » وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعداً مقدوراً في عرف الأكثرين لظهور المخلص الموعود

وكان اليهود في عصر الميلاد فريقين فريق يتربص الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام . وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم هيكلاً خاصاً في جرزيم . . . « ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود . . . وهم ينتسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم الجديرون باسم الإسرائيليين . . »

وقد تكاثروا النذيريون قبيل مولد السيد المسيح وهم المذودرون لصحبة المخلص المنتظر . لأن مولده عليه السلام « وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري » وهو الموعد الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود . لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة . ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهي كان ألف سنة كما جاء في الزمانيات .

وأن عمر الدنيا اسبوع الهى . تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة . فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم . ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ويؤمنون تسود دولة المسيح الموعود ، لكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، كانت بداية الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلمهم يحسبون من جند الخلاص أول لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبى يحى المغتسل - يوحنا المعمدان - كان علما من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه . وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تحوم الأرض التى فتحها العبريون قديما ، وأنها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير . . .

ولاشك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته إلى إسرائيل وابتغى منها

المهداية « لخراف بيت إسرائيل الضالة » ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجأهم في الإعراض عنها ، فوجهها إلى كل مستمع لها مقبل عليها ، قال لهم إن العاملين بالخير ذرية لإبراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة إليه بالسلالة . لأنهم هم أبناءه بالروح . وضرب لهم المثل بوليمة العرس التي لم يحضرها المدعوون إليها . . . « فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقها وهات إلى بمن تراه من المساكين . فعاد العبد وقال لسيدته : قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلئ بيتي . فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع . لأن الشريعة الدينية كانت في أيدي أحبار الهيكل والشريعة الدنيوية كانت في أيدي أتباع قيصر . ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذي لم يسبقه إليه سابق من المرسلين في تصحيح الشرائع بحملتها . فقد جطم عنها قيود النصوص ونقلها إلى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير . ومن تحطيم النصوص أن يكون أبناء النبی هم أتباعه بالروح وإن لم يكونوا من ذريته بالجسد . ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير في ضمير الإنسان لا في مظهر من مظاهر العالم فإن ملك ضميره فقد ملك كل شيء . وإن ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من أناس وحطام

رسالة النور الجديد

وما تقدم تنجلي المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوي في هذه الرسائل

فنها الرسالة التي تنطوى في تكاليف الزعامة ، فتأتى الدعوة الإلهية
لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم في جميع
الشئون

ومنها الرسالة التي تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها في وجه الأمم
الأخرى ، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها إلى تلك الحراسة

ومنها الرسالة التي ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل
منهم بما يبتغيه

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعا رسالة محمد عليه السلام ، فلم
يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، إذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة
مقصورة على منفعة أمة ، ولا تحقيقا لوعود منتطرة يفسرها كل واحد بما
يبتغيه

رسالة محمد عليه السلام رسالة إلهية قوامها أن الله حق وهدى ، وأن
الإيمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الإيمان أعلى
وأقدس من كل إيمان لأنه إيمان بالحق والهدى

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشيرا
كسائر البشر عليه من أمانة الهداية ما على الإنسان للإنسان زعيما كان أو
غير زعيم

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة ، لأنها إيمان برب
العالمين ، ولا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا
بالتقوى

ولم تكن مقاضاة لوعود ، لأن الإسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير
ما وعد به الناس كافة في جميع البقاع والأرضين

نزاهة العبادة

تعود بعد المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا النعم السامى كما وصفه الإسلام بين النقائص التى تقدح فى العبادة التزيمية

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب . وما من أمة من الأمم فى عصر الدعوة الإسلامية كانت صور النعم السامى عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها

فليس الإيمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما من دين يستحق أن يسمى ديناً يسوى بين الصالحين والمفسدين ، أو يحجر على النفوس أن تطمح إلى النعم الذى ترتضيه

إنما الميزان الحق للعبادة التزيمية هو الصفة التى يتصف بها الإله المعبود ومن أجلها يتعبد له المؤمنون

وأنزه العبادات - ولا ريب - هى العبادة التى يدين بها المؤمن لله جل وعلا لأنه حق وهدى ، ولأن الإيمان به هو الصديق والصواب

هذه العبادة أنزه من العبادة التى تنتجها الأمة إلى الله لأنه يقوم مقام الحارس فى وجه الأمم التى تخشاها ، وهى أنزه من العبادة التى تقوم على تقاضى الوعود أو العبادة التى تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرأسة والزعامة أمانة إنسان يدعو بها اخوانه فى الإنسانية ، ويرفع مكانها فوق مكان أنها نشأت فى جريدة العرب حيث لا غرابة أن تكون الرسالة أمانة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على

الإجمال منفعة محدودة في وجه العالم كما تحد الصحراء ما حولها من البقاع والأرضين .

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المترمة المثل . وهذه هي رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال . قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه

الوساطة

يقوم الإسلام على خمس فرائض : هي الشهادتان . والصلاة . والصيام . والزكاة ، والحج إلى بيت الله

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق . فحيث وجد المسلم في وسعه أن يؤدي صلاته و « اينما تكونوا فثم وجه الله »

وإذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم في مسجد معلوم

ويحتاج المسلمون إلى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون إليه لأن وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم ، شأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين

وإذا حج المسلم إلى بيت الله فليس في بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملئ عليه شعائره ، وإنما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فإن جهل حكما من أحكام الحج فإنما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج في قبوله إلى وساطة من وسيط

ويصبح للمسلم أن يؤدي زكاته كما يصح له أن يسلمها لولى الأمر
ليجمعها ويفرقها على مستحقيها . ولا عمل له فيها يتم به الفريضة
بعد أدائها

* * *

هذه الفرائض التى تنزهت عن الوساطة بين الإنسان وربّه قد تفهم
على أنها مصادفات متكررة على صعوبة التكرار والتوافق بين هذه
المصادفات ، لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التى ارتفعت إلى
غايتها فى الإسلام فالإله فى العقيدة الإسلامية منزّه عن المشابهة والمقارنة
والرمز والمحاكاة . وليس كمثله شيء . ولا وسيلة لإنسان إلى رؤيته من
حيث لا يراه الآخرون

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من الغربيين أن
يدينوا للإسلام بهذا التقدم الكبير فى تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة
الإلهية ، وأيسر من ذلك عليهم إن يحسبوه ضرورة من ضرورات
النشأة فى الصحراء ، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز إلى الفخامة
بروعة البناء

ولكن العقائد الدينية، نشأت فى صحراء العرب وفى غيرها من
الصحارى قبل الإسلام ، ولم تنشأ فى إحدى هذه الصحارى مجردة من
شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الإنسان
وطبقات من الأرباب دون مقام الإله الواحد المتزّه عن الأشباه
والنظراء ، وكانت الكعبة فى مكة ملأى بالأصنام والأوثان يتخذونها كما
يقولون لتقربهم إلى الله زلفى ولا يحسون أنها تناقض طبيعتهم
الصحراوية فى التدين والعبادة

ومما فات أصحاب المقارنات أن يذكروه في هذا الصدد أن الأمم
التي تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء إنما كانت تثوب إلى
هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين اتباعه
وبين الله ويضئ من قداسه ما يشاء على ما يشاء ، فإذا وجد في
الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أخرى أن يمتاز بالتعظيم
والتقديس وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لا تظفر بها المعابد حيث يكثر
البناء

* * *

وأولى من ذلك بالتنبيه أن الإسلام يحارب سيطرة توجد في الهياكل
وتوجد في صوامع الصحراء وخيامها وفي التوايت التي تحمل من مكان
إلى مكان كتابوت بني إسرائيل ، لأنها سيطرة الكهان والرهبان التي
تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين . . « يأبها الذين آمنوا إن
كثيرا من الأبحار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن
سبيل الله » . . وكل مسلم منهي بحكم دينه أن يقتنى آثار الأمم الذين
حكموا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون
الله »

فليس لرئيس الدين في الإسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة
الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوى السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا
كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وتلك هي الفريضة العامة التي يندب لها

من يقدر عليها من ورثة الأنبياء ، وهم : « . . أمة يدعون إلى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

* * *

هذا موقف للإنسان في الكون كله بين يدي الله بغير وساطة ولا
فاصل ولا حجاب ، تقدم به الإسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة ،
ولكنه نتيجة من تلك النتائج الإلهية الكثيرة التي تقصر عنها السوابق
والمقدمات

دين الانسانية

قلنا في صدر هذه الرسالة إننا نتبع فيها المقدمات ونقسمها إلى قسمين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التي تأتي بعدها ، ومقدمات غير كافية لتفسير جميع النتائج التي تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها . ونحن نرى في فصول هذه الرسالة تفاوتاً بين المقدمات في كفايتها ، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت في مقدمات دين الإنسانية ولا في مقدمات النبوة كما بسطانها في موضعها فلو أن جميع الأديان التي عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أُمم الإنسانية جميعاً من جزيرة العرب على الخصوص .

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الإنسانية في هذه الخصلة ، فقد وجدت اديان تدعو الأمم إلى التوحيد قبل دعوة الإسلام ، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوى بينهم وترى لهم حقاً واحداً في عبادتهم ، بل كانت تدعوهم إلى عبادة ملك واحد في السماء وملك واحد في الأرض ، كأنها مسألة سيادة لامسألة مساواة .

وقد جاءت الدعوة إلى التوحيد قبل الإسلام من طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها ، إذ كانت القبيلة القوية تتغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها ، ثم يتغلب الشعب القوي على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة ربه وطاعة أميره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح

لها الصفة « العالمية » وتحسب الأرض كلها عالماً واحداً خاضعاً لشرعها وشرائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها ، ولا يأتي هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل الهداية والإرشاد ، بل يأتي على سبيل القهر والإخضاع وتجريد المغلوب من سادته في الأرض وسادته في السماء على السواء .

وعلى هذه السنة جرى الرومان على إخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة « الإمبراطور » في هيكلمهم ووضع الشارة الرومانية على محاريبهم ، فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم أو اعترافاً بمساواتهم ، بل فرضوه لإخضاعهم وتحريم كل معبود في الدولة غير معبودهم ، وهكذا صنع غير الرومان في مصر وبابل والبلاد الفارسية .
إن هذا « التوحيد » وجد قبل الإسلام .

ولكنه أبعد شيء عن دين الإنسانية الذي نعينه ، وهو الدين الذي يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة إلى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة إلى توحيد الإنسانية في حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بالله لا إله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يفتاوتون بغير الفضل والصلاح .

لقد كان الإله عند العبريين يسمى إله إسرائيل ويخص من أبناء إبراهيم ذرية يعقوب بن إسحاق دون سائر العبريين .

قال يوشع : « هكذا قال الرب إله إسرائيل »
ويقول الشعب في كتاب الأيام : « ألسنت أنت الهنا الذي طردت

سكان هذه الأرض أمام شعبك إسرائيل وأعطيها لنسل إبراهيم خليلك
إلى الأبد . . »

وقال داود في سفر صمويل الأول : « مبارك الرب إله إسرائيل
الذي أرسلك هذا اليوم »

وفي سفر الأيام : « خلصنا يا إله خلاصنا ، واجمعنا وأنقذنا من
الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك . . مبارك الرب إله إسرائيل
من الأزل إلى الأبد . . »

ويطمئن بنو إسرائيل إلى هذه الخطوة وإن لم يستحقوها بولاء أو
إيمان ، ويتنبأ المنتبئون والأنبياء فينعون عليهم خيانة الإله كما جاء في سفر
أرميا : « إن آباءكم قد تركوني وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها
وسجدوا لها وإياي تركوا وشريعتي لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم في عملكم
أكثر من آباءكم وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى
تسمعون لي . . »

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير أن الله يريدهم شعباً
له : « واجعل عيني عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيتهم ولا
أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلباً ليعرفوني أني أنا الرب
فيكونوا لي شعماً وأنا أكون لهم إلهاً لأنهم يرجعون إلى بكل قلوبهم . . »

ودامت هذه العقيدة إلى عصر الميلاد فتهيات العقول لعقيدة أرفع
منها وأعدل وأقرب إلى المساواة بين الناس ، فكان يحيى المغتسل (يوحنا
المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل أو إيمان ،
ويخاطب القوم كلما تهادوا في اغترارهم بالنسبة إلى إبراهيم الخليل قائلاً :

إن الله قادر على أن يخلق لإبراهيم أبناء من حجارة الأرض ، فإن لم يخلصوا في إيمانهم فلا أمل لهم في الخلاص .

وتحولت الدعوة المسيحية من بني إسرائيل إلى الأمم على الرغم من بني إسرائيل ، لأن السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين أقام لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتحلفوا عن اجابة الدعوة : « فقال هذا إني اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فأنظره . . وقال ذاك : إني اشتريت ازواجاً من البقر وسأضمي لأجربها . . فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلاً إلى طرقات المدينة وأزقها وهات إلى من تراه من المساكين . . فعاد العبد وقال لسيدته : قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلئ بيوت قلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بني إسرائيل إلا بعد إعراضهم عنها وإصرارهم على الإعراض في كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت إليها دعوة السيد المسيح وتلاميذه . أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة في تقديمهم على غيرهم من الأمم : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : إرحمني ياسيد ! يا ابن داود . ابني مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة . فتقدم إليه تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة فأنت وسجدت له قائلة : ياسيد ! أعني . . فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . . فقالت

نعم ياسيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة
أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك
ما تريدن . . . »

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين إلى الأمم غير
مقصورة على بنى إسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الأمم لأنهم أحق
بإبراهيم من أبنائه بالجد ، إذ كان المستجيون للدعوة أبناء إبراهيم
بالروح .

* * *

وإذا روجع تاريخ الأديان قبل ألى سنة لم يوجد منها دين واحد
خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الإنسانية على اختلاف
أصولها وأجناسها .

وقد وجدت فى الصين شعوب بلغت فى ذلك العهد مائة مليون أو
تزيد ، ووجدت فى الهند شعوب تقاربها فى العدد ولم يعرف هؤلاء ولا
هؤلاء دعوة الإنسانية إلى دين واحد بل كانت الصين تدين بعبادة
الأسلاف كل بيت له هيكله وعبادته على حدة ، وكانت ديانة الهند
ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الأحرار بتلاوة أسفارها ويحرمون على الطبقات
المحرومة تلاوتها والتعرض لفهمها وتفسيرها ، ويقول جوتاما ريشى فى
بعض كتب الفيدا : « إذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فن واجب
الملك أن يصب الرصاص المذاب فى أذنيه » .

* * *

هذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون .
وتقف المقدمات عند هذه الدعوات . ثم يستمع الناس إلى دعوة من
أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الإنسان جميعا إلى دين واحد وإله واحد
وحق واحد :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »
« وما أرسلناك إلا كافة للناس »
« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

وفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل إليه فيقول في تفسير
هذه الآيات : « لأفضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي
إلا بالتقوى » .

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هذا
الذى أجملناه لكان فيه الكفاية .

لكن العجب منه يتصاعف ويتعظم حين تأتى النتيجة من أعماق
الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له
مثيل بين الأمم والعصبيات .

وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتصاعف
المتعظم . فإن الرسول الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم لم
يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين .
بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة التى يعترف بها النظراء ويعنوها

المكابرون . . . وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس إنهم إذا صلحوا واستقاموا : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »

المسئولية الفردية

وللديانة الإنسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فإلم يكن لهذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لإنسان ولا لجملة الناس .

وفكرة التبعة الفردية ، والمسئولية الفردية بسيطة سهلة الفهم تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم فى كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة إلى تطبيقها لما خلا المجتمع الإنسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالاجتماع .

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهمة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى . لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد . إذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه ، فإن لم تسلمه « تصامنت » فى الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتواوثون الثأر إلى الأبناء والأعقاب .

ففى نظام القبيلة على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على

المحافظة ورعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة - التي كانت تسمى ام الشرائع - جعلت الأب مسئولاً عن الأسرة وأباح له التصرف في أرواحها وأموالها ، وقد ناظرتها في الشرق شريعة حمورابي فجعلت من حق الرجل الذي تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنساناً مستقلاً بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التي لاتعرف لها بداية منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة تلك الجرائم والآثام إلى الأجل المقدر ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمل به بعد ميلاده بل هي سابقة للميلاد لاحقة به آماداً بعد آماد .

وعلى هذا تعاقبت الأجيال على إهمال المسئولية الفردية في أطوار البداوة وأطوار الحضارة ، ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذي نفهمه الآن أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية في عصور الأسر القديمة ، ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها إلا اليسير .

* * *

ولا نطيل في شرح « المسئولية الفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتائبيين قبل الإسلام ، ولكننا نشير إلى طرف منها للإبانة عما انتهت إليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الإسلامية .

ففي سفر التكوين أن « نوحاً شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبوكنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً . . فلما

استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان .
عبد العبيد يكون لإخوته . . . »

وفي سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال في وقعة عاي
فأنهزم الإسرائيليون . . . » وأجاب عاخان يشوع وقال حقا إني قد
أخطأت إلى الرب إله إسرائيل . . رأيت في الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا
وأخذتها وهاهي مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها . . .
فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته
وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا
بهم وادى عجوز . . . فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا
اليوم ، فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم
بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم ، فرجع الرب
عن حمو غضبه !

* * *

وكان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده ، بل
يسأل عنها كل ولد من ذريته .

أما الدعوة الإسلامية فالمسئولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم
يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات ، ومعجزة
المعجزات فيها إنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم
ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات .

قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر
ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس لأول مرة في تاريخ البداوة
والحضارة « أن ليس للإنسان إلا ماسعى » وأن جيلا من الأجيال
لا يؤخذ بجريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته : « تلك أمة قد خلت
لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »
و « كل امرئ بما كسب رهين »

* * *

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ماعمله الإسلام وحده
مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع
والمناقضات .

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي
العقيدة ، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل
التاريخ . إذ لا قوام للمخلوق وللدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة
لتكليف ولا حساب .

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعا إلى حديث الكعبة أو الكعبات التي
ثابت إلى قبلة واحدة : هى قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف .

يدور البحث ما يدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من احدى
نواحيه بتلك البيوت التى تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام ،
ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة يشترك فيها القبائل من سكان البقاع
القرية ، ويتعاهدون على المسألة فى جوارها .

وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهى بيت
الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء وبيت نجران وبيت
« مكة » أشهرها وأبقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون
ولاتقصده من مكان بعيد .

وكان بيت الأقيصر فى مشارف مقصد القبائل من قضاة ولحم
وجذام وعاملة ، يحجون إليه ويخلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضة من
الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذى عناه زهير بن أبى سلمى بقوله :

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا

وما سخفت فيه المقادير والقمل !

وبيت « ذى الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم بين
مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخارى أن النبى عليه
الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وأن الذين كانوا يسمونه بالكعبة

الجمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تميزا بين الكعبتين .

وكان بصنعاء بيت رثام يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران « يقرءان التوراة » من ملك اليمن أن يأمر بهدمه « لأنه شيطان » يفتن الناس ، فأذن لها فهدماه .

وفي بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الإسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركها قفرا بقاع أسحا
وأعان عبد الله في مكروها وبمثل عبد الله أغشى المحرما
أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبد الله فلي في
رحلته (٢٥ يولية سنة ١٩٣٦) وهى التى قال فيها الأعشى يخاطب
ناقته :

فكعبة نجران حتم علي ك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المس يجح وقيساهو خير أربابها
ويقول بعض المؤرخين - ومنهم أبو المنذر - إن هذا البيت وبيت
سنداد بين الكوفة والبصرة لم يكونا من بيوت العبادة وإنما كانا من
المزارات الشريفة التى يذكرها السياح .

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير اسم الكعبة ، فقال بعضهم إنها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعبها ، وأن بناء

من الروم عمل في بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل بل كان بناؤها من الحبشة ومنها - أى من الحبشة - عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء . وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبهون بالفرع ويغفلون الأصل بجدوره وجذوعه عليه .

ففيها يكن من لغة البناء الرومي أو الحبشي فالقبائل العربية لم تبني تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشئ لها بيتا يسمى « الكعبة » أو المكعبة في اللغة الرومية ، وإنما وجدت الحاجة إلى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناء أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التي تقدمت في هذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود إلى بناء هيكله فاستعان بالصانع العاملين في الحجر والمعدن والحديد من شواطئ البحر الأبيض إلى جواره في الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعا لأصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والإنكار عند المعتقدين بها .

ولم نعرف أن معبدا سمي بشكله أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التي يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالغريبة عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعبا إذا كعب ثدياها ولبعوب بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهي من القضب أو من الأقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت في لغتهم إلى الفانون وهو العصا التي تتخذ للقياس .

البيوت الحرام

ومهما يكن من أصول هذه الأسماء والأشكال ، فالأمر الذى لا يجوز فيه الشك أن « البيوت الحرام » وجدت فى الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحدا اخترعها لتعبد وتقصد ، وإنما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها المكان الذى تعبد فيه وتقصد من أجله .

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة ، لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ولم يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها . فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ أو بين بوادى الصحراء . فهى - أى مكة - مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداها ، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعاليق الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة .

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية

ولاتبعية ولانجاشية كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه .

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها وهي قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة ، فإنها هي « ميشة » المشار إليها في سفر التكوين وهي « ميشا » التي يقول الرحالة « برتون » إنها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون إنها كانت كذلك بيتا مقصودا للصائين الذين أقاموا في جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون ، ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطئ الهند وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلما ترددوا عليه في تجارتهم من أقدم عهود التاريخ ، فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التي وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها في مواسم الحج والإحرام .

ومن المحاولات التاريخية التي لاشك في بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث أن يدخل مكة في حوزة الروم وأن تستولى دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطئ اليمن إلى مشارف الشام .

فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس في اليمن وكانت تلتقي من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانية ، وكانت تحذر دولة الروم لأنها

كانت تملك الوصول إلى بلادها من وادى النيل وتملك طريق البحر الأحمر في نهايته القصوى ، فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرباط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه . وسفر أبرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن وشواطئها فبنى « القليس » فى صنعاء ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة الكلس بمعنى التكلّس أو الطلاء . فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج إليها وكتب إلى النجاشي يقول : « إنه ليس بمنته حتى يصرف إليها العرب أجمعين » . . . فقبل فيما قيل إن أناسا من العرب كانوا يذهبون إلى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك وتحدى أربابها أن تصيبه بأذاها إن كانت لها قدرة الأرباب . فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة على مكة فى عام الفيل المشهور .

هذه محاولة لاشك فى الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام .

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتخليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم . فارتضى قيصر للملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى . وكتب له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم إليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام إذا هم عصوه وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها فى وجوههم وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام . قال : « يا قوم ! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصييون

من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب فأجمع ذلك ثم أذهب إليه ، وأنا أخاف إن أيتّم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه » .

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية ، وكلتاها تثبت شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب ، وأن دولة الروم لم تكن تريد باختيارها وإنما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » أن تحفظ مكانها على الرغم من خلوص مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لحلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمآثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون من يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير النسادة للاتباع المكرهين على الطاعة وبذل الإتاوة .

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذى قامت عليه مكانة البيت المكى أن البيت يحملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن المعظم بقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة « البيت » عند المعظمين والمزدرين ، واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره

والمتكلفون بخدمته ، فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير...

وعلى هذا كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشياء متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد ، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملتها معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ومناظرتها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أباذر قال له : « يا ابن أخي ! صليت مرتين قبل مبعث النبي ﷺ . فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهني الله ! » .

وجاء في الأغاني أن زيد بن عمر بن نفيل كان يستقبل الكعبة في صلاته ويقول :

لييك حقا حقا تعبدا ورقا

عدت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول إني لك عان راغم مها تجشني فإني جاشم

وذكر صاحب كتاب حجة الله البالغة أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء ، وكان صيامهم من الفجر إلى مغرب الشمس ، وكانت لهم

بقايا من العبادات التي عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان . وإنما يرغبهم فيها أنها أعمال ترضى «الإله» وأنهم يعرفون إلهها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء ، وهى حقيقة لا يعتورها الشك لأنهم كانوا يسمون «عبد الله» ويلبون فيقولون اللهم ليك ، ولا يدعون أحدا من الأصنام «رب البيت» فإذا قالوا «رب البيت» أرادوا به ربا فوق جميع الأرباب .

إننا فى هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا فى مفتتحها إلى قسمين : قسم ينقطع دون النتائج التى جاءت بعده ، وقسم يتصل بنتائجه ويشير من مبدأه إلى غايته فى مجرى الحوادث ، وليس بين هذه المقدمات المتصلة ما هو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتيمه من قيام البيت فى مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة .

وقد سميت الكعبة «الحمساء» وانتسب إليها «الحمس» وهم طوائف متشددون فى فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد فى مواسم العبادة ، فيقضون زمنا فى العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار ، ويحرمون على أنفسهم فى الأشهر الحرام أكل الأقط والسمن ولبس النسيج من الوبر والشعر ، ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف بالبيت فى غير الثياب الأحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء إذا لم تكن عليهم هذه الثياب .

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذى تعاهد عليه أناس من علية قريش لينصرون كل مظلوم ويردن الحق إلى كل مغصوب وليكونن يدا واحدا فى قتال كل غاصب يلج فى ظلمه وغضبه اعتزازا بماله أو بعصبته

وحزبه . وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت الزم ولا أكرم من هذه
المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية في
دعوة واحدة ليست لذى سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو
مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين .
بل هى دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة
الخلق من عباد الله .

أسرة النبی أجداد النبی

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة وجبت له أمانة الخدمة بماله من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدمته السميت الذي يحمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتفديس .

ولم يقم بهذه الأمانة أحد كما قام بها أجداد النبی عليه السلام من بنی هاشم . فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة . وبدا منهم الإيمان بها في مآزق الشدة التي يمتحن فيها الإيمان بحب النفس وحب البنين فيغلب الإيمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنیه .

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق في الطباع ملحوظ الأثر في خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون ، ومهما تجدد من ندين متناظرين في هاشم وأمیه إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء .

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الإجماع أو ما يشبه الإجماع على أخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الأسرتين وبقی الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفتدوه .

ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد
المطلب إلى نفيـل جد عمر بن الخطاب إذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب
حرباً قائلاً : « أتأفر رجلاً هو أطول منك قامته وأعظم منك هامة وأوسم
منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً وأطول
منك مذوداً .

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام»
والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات ، فيقول دغفل
النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده أمية : « رأيته رجلاً قصيراً ضريراً يقوده
عبده ذكوان» ... قال معاوية « ذلك ابنه أبو عمرو ! » قال دغفل :
« ذلك شيء تقولونه أنتم أما قريش فلم تكن تعرف إلا إنه عبده» .
ويقول الكلبي في أبناء عبد المطلب : « كانوا إذا طافوا بالبيت
يأخذون البصر» .

قلنا في كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان : « وقد يتردد
المؤرخ في قبول بعض الروايات المتقدمة على علانها ، ولكنه لا يحتاج إلى
المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق
العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ففي حلف الفضول
قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ، وتخلّى
عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه ... وخلاصة قصته أن رجلاً يمانية
قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل فلواه بحقه وأبى أن يرد عليه بضاعته ،
فقام في الحجر أو في مكان على شرف وصاح يستغيث ، وكان من أجل
ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غرب ولا

قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول » .

وربما خفى السبب الذي يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين ، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول وقد رمى الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة في عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم في صدر الإسلام وأشهر ما إشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذي يقولون إنه من آبائهم ويقول النسابون إنه عبد مستلحق على غير سنة العرب في الجاهلية . وما يعلل به هذا الفارق أن بنى أمية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون إليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم ، وأنهم أكثروا من الرحلة في بادئ الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النعم وأرباح التجارة ، وليس بالبعيد أن « المعاهرة » التى أشار إليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست في أخلاقهم شيئا من خبائثها ، وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الأسرتين إنما كان من قبيل تلك الفوارق التى نراها بين الإخوة كأنها قسمت بينهم ميراث الأخلاق فذهب أحدهم بالحوال وذهب أخوه بالخليلة ، أو ذهب أحدهم بالكرم والأريحية وذهب أخوه بتقاضها من خلال الأثرة والدعوى .

وأيا ما كان سر هذا الفارق البين لقد كان بنو هاشم - أسرة النبی - أصحاب رئاسة ، وكانت لهم أخلاق رئاسة .

عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة ، وبرزت كل خليفة من هذه الخلائق في حادثة ماثورة مذكورة ، فلم تكن خلافتهم هذه من مناقب الأماديع التي يتبرع بها الشعراء أو من الكلمات التي ترسل أرسالا على الألسنة ولا يراد بها معناها .

كان هاشم غياث قومه في عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياح إلى قصاعه :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يجمي تلك الرحلات وينظمها . فنسب إليه أنه أول من سنها .

ومكانته في غير قريش . وفي مدن التجارة خاصة . تدل عليها مصاهرته لبنى النجار في المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عمرو التي كانت - لشرفها وعزتها - تأبى أن تتزوج إلا أن يكون أمرها بيدها ، ولو لم يكن لهاشم مقامه في الحجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام . وقد كان المعهود في بنى عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعا في ديارهم وأنهم لا تزال لهم همة طامحة في رحلاتهم وأسفارهم ، ومات أكثرهم في غير وطنهم . فمات هاشم بغزة في الشام ومات عبد المطلب برومان إلى ناحية من أرض اليمن ، ومات نوفل بسلطان في العراق .

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع ، ويبلغ هذا التقابل بين الأُسرتين أقصاه في عهد مناظره حرب بن أمية ، فكان كلاهما نمطا في بابهِ من طرفي العقيدة والأريحية وطرف السعي والحيلة . وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين . مؤمنا بمحارم دينه في الجاهلية لأن ثقة الإيمان طبيعة في وجدانه ، وهو أول من حلّى الكعبة بالذهب من ماله ، ويعنينا منه أنه كان في الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبايع التي فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار . فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التي تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التي تعرف بهذه الأسماء في جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة .

بل كانت مناقبه مطلية تدل عليه ولا تصدر من غيره ، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة .

وهذه طائفة من أخباره لا نفتقد في واحدة منها تلك المناقب المطلية التي تغز على خيال المتخيل ما لم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع إليه .

وصل أبرهة الحبشي عام الفيل إلى أرباض مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حناطة يسأل عن « أمير مكة » ويبلغه أن أبرهة لم يأت لقتالهم وإنما أتى لهدم البيت الحرام فإن لم يمنعه فهم في أمان من حربه . فلما لقي الرسول عبد المطلب وأبلغه رسالة أبرهة قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وهذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم فإن يشأ منع بيته وحرمة وإن لم يشأ تخلى عنه ، والله ما عندنا من قتال .

قال الرسول : انطلق معى إلى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب إلى أن أتى معسكر أبرهة وأدخلوه عليه .

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسما فتزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب : الإبل التى ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان أمر عبد المطلب في نظر أبرهة وقال له : أنتأل عن البعير وترك البيت الذى هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وللبيت رب يحميه . فأمر برد إبل عبد المطلب دون غيرها ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هديا إلى الحرم ، ووقف على باب الكعبة يقول :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا فامنعهم أن يجربوا قراكا

هذه هى « المطلبية » التى نعنينا فى خصال هذا الرجل العظيم : لانهور مع القوة الطاغية ، ولكن لاختضوع لها بل وضع لها فى موضعها وقول يناسب كل مقام ، فإذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن فهناك الجواب الفعال الذى يغنى مالميس يغنيه المقال : ماسألت عن الإبل لأننى أضن بأثماتها فإننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكننى سألت عنها لأنها هى موضع سؤالى ، وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله يننى الثقة بالبيت وبالله . . .

وقد حدث بعد ذلك ماحدث مما لاشك فيه ، وهو فتك الجدرى

يجنود أبرهة وانهزمه عن البيت وخوفه من أن يتقدم إليه بأذى ، وإنه
لخبر قد يسهل إنكاره على المتحذلقه من أدعياء التاريخ الذين يجمعون
التحصيل كله في الإنكار ، لولا أن حديث الجدرى الذى فشا (فى سنة
٥٦٩) مثبت كما تقدم فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى
المعروف .

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلوبة أنه عاش زمنا قليل الولد لم
يرزق غير ابنه الحارث الذى كان يكنى به . وعيره عدى بن نوفل بن
مناف يوما فقال له : أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذل لا ولد لك ؟
فأجابه عبد المطلب جوابه الذى أثر عن ذلك اليوم : أيا لقله تعيرنى ؟ !
فوالله لئن آتانى الله عشرة من الولد لأتحرن أحدهم عند الكعبة . !

وسنعود إلى التعقيب على هذه القصة فى حديث عبد الله أبى النبی
عليه السلام ، ولكننا نجتزئ هنا بأن نقول إننا لانسقطها لمجرد اختلاف
الروايات فيها ، فإن أخبار الحاضر تتناقض أمامنا ونحن لاننكر وقوعها
لهذا التناقض ، وقد اختلفت الرواة فى عبد الله بن عبد المطلب هل هو
أصغر أبنائه جميعا أو أصغر أبنائه من أمه ، وهل بلغ أبنائه العشرة أو
حسب منهم أبناء الأبناء ، وكل أولئك لا يسقط القصة كما أسلفناه وكما
يجب فى سيرة عبد الله .

وملتقى الروايات فى هذه القصة أنه أمر بنیه أن يكتب كل منهم
اسمه فى قدح وطلب من صاحب القداح أن يضرب عليها فخرج السهم
باسم عبد الله . فهم بإنفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات
قريش ، وتنادوا بينهم : لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولا يزال الرجل يأتى
بابه فيذبجه ، فإن يكن فداء فبأموالنا جميعا نفديه .

واحتكموا إلى عرافة بالحجاز فسألتهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل . قالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، ثم زيدوا الإبل كلما أخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه . فقد رضى ربكم ونجا ولدكم »

يقول الرواة : وعادوا إلى مكة فقربوا عشرة من الإبل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله . وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة . فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من لحمها إنس ولا وحش ولا طير .

ومن أخباره أن قريشا خاصمته في ماء زمزم بعد أن احتفرها وعارضوه في احتفارها ، فاحتكموا إلى كاهنة بنى سعد بن تميم بمشارف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون ، وفنى ماء عبد المطلب عند بعض المغاوير بين الحجاز والشام فظمى أصحابه حتى أيقنوا بالهلكة ، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم ، فجمع أصحابه وسألهم : ماترون ؟ قالوا : رأينا تبع لرأيك فرنا بما شئت . قال : فإني أرى أن يحفر كل منا حفرة فيواريه فيها أصحابه إذا مات ، حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع ، فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله . . . ثم بدا له رأى أصوب من هذا رأى فقال لأصحابه : والله إن إلقاءنا أنفسنا بأيدينا للموت هكذا دون أن نضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا لهو العجر . فهللوا نرتحل ، ولم يذهبوا في طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته ، فشربوا وملأوا أسقيتهم . ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله . فقال

أصحابه : لانسقيهم والله لأنهم لم يسقونا . قال : نحن إذن مثلهم ، ولم يرضه أن يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم ، وعرف القرشيون له هذا الحق فكفوا عن منازعته في ماء زمزم وسلموا له السقاية التي كانوا ينفسونها عليه .

ويروى عنه أنه كان له جار يهودى يسمى أذينة ، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن أمية وأغرى به فتبانا من قومه فقتلوه ، فلم يزل عبد المطلب يستقصي خبره حتى علم باغتياله ومن اغتالوه ، فأبى إلا أن يكره حربا على الدية وأخذ منه مائة ناقة أسلمها إلى ابن عم اليهودى وارتمع ماله إلا شيئا هلك فارتجعه من ماله .

وهذه هى المناقب « المخصصة » التى نقول إنها لاتجربى مجرى الطابع والوتيرة ولا تغنى عناوينها عن النظر فى ملامح أصحابها ومميزاتهم فى التفكير والعمل ، وهى مناقب لاتخترع ولا يضيرها أن يضاف فيها الخبر المخترع إلى الخبر الواقع لأن الرواة المخترعين فى هذه الحالة إنما ينقلون عن صورة أصيلة تمت فى أذهانهم قبل اختراع أخبارهم عنها ، فحاولوا أن تكون أخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها .

فى كل خبر من هذه الأخبار « المطلوبة » إيمان وحزم ووفاء وجراءة على الخطر ولكن فى غير مغالطة ولا اصطناع ، وإنما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه ويفعل واجبه كما يراه .

وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين لا يغفلهما أحد يفقه معنى تمحيص الخبر ، وأولها فى هذا السياق : لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيها : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية ؟

فإذا كانت صورة الرجل في الأذهان هي علة الاختراع فهناك حقيقة إذن ماثلة وراء هذه المخترعات ، وهناك دلالة في اتفاق الأذهان على الاختراع أولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان ، لأن رؤية العيان تحتاج بعدها إلى البحث عما تدل .

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره ، واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شخصية قوامها الإيمان والحزم والوفاء وضبط النفس في مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تهوى في غير جدوى ولا تنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى . وكلها صفات جديرة بآباء الانبياء والمرسلين .

عبد المطلب

ولد عبد المطلب في المدينة وسمى « شبة » تفاؤلا له بطول العمر في أسرة لم يكن طول الأعمار من خصائصها ، وترى بعيدا من آل أبيه فصدق عليه في طفولته قول القائلين في عصرنا إن الطفل أبو الرجل . لأنه كان يلعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لا يرى أباه بينهم ، وحز ذلك في نفسه فجعلت أمه تسرى عنه وتحذثه عن آل أبيه ومآثرهم في جوار البيت الحرام ، فطال اشتياقه إلى رؤيتهم والإقامة بينهم ، بيد أنه أحجم عن السفر مع عمه « المطلب » حين قدم إلى المدينة لأخذه إلى مكة ، وبصر بأمه في الدار حزينة واجمة تبكى لفراقه وتستهمل عمه عسى أن يبقيه لديها إلى عام قابل ، فقهر في تلك السن الباكرة شوقه إلى أهل أبيه وقد عز عليه في المدينة أن يفاخر

بهم لداته بين آبائهم وذويهم ، وقهر في إبان الطفولة ذلك التطلع إلى
المجهول وذلك الحنين إلى الغرائب وتلك الرغبة في كل حركة وكل انتقال
من مكانه الذي هو فيه ، وقال لعمه بعد أن تهلل لمراه ورحب بالعودة
معه إلى قومه : لن أترك أُمى أو تأذن لى بالسفر معك راضية .

وفي سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعبد المطلب لأن أهلها رأوه
مع المطلب لأول مرة فحسبوه عبداً اشتراه ، وجعلوا يدعونه باسم
« عبد المطلب » كلما أرادوا أن يميزوه من أبنائه ، فغلبت عليه .

وشب الغلام عزوفاً أبياً لا يستكين للهزيمة ولا ينزل عن حق له أو
حق كان لأبيه ، فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه
لديه تحين الفرصة للسفر إلى المدينة وعاد إلى مكة بعصبة من أقارب أمه
وأخواله ، وهم أولو عصبة أشداء ، يشاد بغوثهم في مدائح الشعراء :

ولو بأبي وهب أنخت مطيتي

غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحباً ودعاهم إلى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضى
فتاهم ، فصالحهم على ما يرضيهم ويرضيه .

وصح التفاؤل في عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها
ومات والنبي عليه السلام دون العاشرة فعهد به إلى كفالة عمه أبي طالب
شقيق أبيه .

وكل ماتفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لاتتفرق
فيها روايتان ، وهى صدق التدين والإيمان بمحارم الدين في سدائنه أو في

غير سدانته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم
أبى لهب لزهرة كانت فى لون وجهه ، ومن حديثه أنه كان يتعصب
للعزى التى نمت إليها باسمه ، وأنه زار أحد عبادها المتسكين لها فى مرض
موته فوجده يبكى ، فسأله : مايبيك ؟ أمن الموت تبكى ولا مفر منه ؟
قال الرجل : كلا . ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى !

فقال أبو لهب : والله ما عبدت وأنت حى لأجلك ولا تترك بعدك
لموتك ، فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت أن لى خليفة
يرعاها .

وكانت العزى بوادى حراص على يمين المصعد إلى العراق ، وكانت
قريش قد حمت لها شعبا يقال له سقام يضاهون به الكعبة ، وهى التى
يعنيها أبو جندب الهذلى إذ يقول فى بعض غزله :

لقد حلفت جهدا نيمنا غليظة
بفرع التى تحمى فروع سقام
ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد إليه الحاج بعد منى كما يقول
نهيكة الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل :

يا عامر لو قدرت عليك رماحنا
والراقصات إلى منى فالغيب

وشأن هذه القصة فى مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة
من وسائل الرجل إلى طلب السيادة والسدانة ، وأنه لم يتدين لأنه سادن
الكعبة وصاحب المنفعة فى تعظيمها . بل كان يعظم العزى ولا منفعة

له في هذا التعظيم ، وكان الدين عنده إيماناً خالصاً من الحيلة ومن مآرب الكهانة .

ولا يخفى أن الوراثة في الطبائع لافي الشعائر وظواهر العبادة ، فمن كانت عنده عقيدة الإيمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات ، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات في سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هي الطبيعة التي تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ، ومثلها في ذلك مثل الشجاعة في القتال ومثل السخاء بالمال ، فإن الابن الذي يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه ، وفي ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لإقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال إلا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ، ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء .

وهذه الطبيعة هي التي ينظر إليها الناظر في مناقب الأسرة الموروثة ، فلو كان عبد المطلب يوافق بالتدين ليخدع به قومه ويتدرب به إلى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذي تورث منه خصال الصدق والإيمان ، ولكنه تورث منه هذه الخصال حين يصدق في معتقده بالكعبة وبالغزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه في رئاسة هؤلاء الناس .

أبو طالب

وكان أبو طالب - خليفته في الوصاية على النبي - أشبه أبناءه به في جميع حصاله ومناقبه .

والخلاف كثير في اسلام أبي طالب ، إذ لم يتفق الرواة على إسلام أحد من أعمام النبي غير حمزة والعباس وهما في مثل سنه . والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات .

ولكن لاختلاف على حمايته له وجه إياه وصبره على عداوة قريش كلها في سبيل نصرته ورد أذاهم عنه ، وقد لقي في ذلك ما يطبق وما لا يطبق ، وعظم عليه الخطب وأشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له في ساعة من أشد ساعات الحرج : « أبقي على نفسك يا بني ولا تحملني من الألم مالا أطيع » . . . فحزن النبي وحسب أنه سيخذله وقال له وهو بهم بمفارقتهم : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته »

فلم يبرح النبي غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لأسلمك لشيء أبدا »

وفي رواية ابن إسحاق : « أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه . فيصلبان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا ، فكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا ، ثم إن أبا طالب عثر عليها يوما وهما يصلبان ، فقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم . هذا دين الله ودين رسله ودين أبيينا إبراهيم . . . بعثني الله به رسولا إلى العباد وأنت أي عم أحمق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحمق من أجابني إليه وأعانني

عليه . . . فقال أبو طالب : « أى ابن اخى ! إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن - والله - لا يخلص إليك بشيء تكرهه مابقيت » .

وقال ابن إسحاق : « وذكروا أنه قال لعلى : أى بنى ! ما هذا الدين الذى أنت عليه ! فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا أنه قال له : إما أنه لم يدعك إلى خير ، فالزمه »

وير أبو طالب بقسمه وحمل السيف فى سبيل نجاته ، وروى القرطبي أنه ناجز أبا جهل وجلة قريش فى مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبيرى عليه فى صلاته . وكان النبی عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلى كعادته فقال أبو جهل : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ، فقام ابن الزبيرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبی ، وانفعل النبی من صلاته وقصد إلى عمه فسأله عمه : من فعل هذا بك ؟ قال : عبد الله بن الزبيرى ! فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم ، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجللته بسينى ، فقعدوا حتى دنا منهم ، وأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول .

وقد تكفل أبو طالب بالنبي فى طفولته الباكرة وصحبه فى غدواته وروحاته خوفا عليه من إساءة تمسه فى غيابه وانتوى السفر إلى الشام والنبي فى نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يحشمه عناء السفر البعيد ، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه ، فلم يقو

على مفارقتة وهو باك ، وقال لصحبه : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا .

ولقد كان الرجل الجليلد يذكر أخاه كلما لحت عيناه الغلام البيت ففتش عن عيناه بالدموع ، ويقول : ما أشبهه بعبد الله ! وقد كان أبو طالب وعبد الله - كما تقدم - أخوين شقيقين ، ولم يثبت قط أن هذا العم الكريم تخلى طرفه عين عن ابن أخيه أو أحزنه بكلمة لا ترضيه من طفولته إلى أن جهر بدعوته ، ولم يخالف هذا الإجماع من أخبار أبي طالب والنبي أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين حسبوا أن أبا طالب هو المقصود بما جاء فى القرآن فى سورة الأنعام : « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون »

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لأنه كان ينهى عن أذى النبی ولا يدين بدينه ، ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبی ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير ، وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم أن أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى فى سورة القصص : « إنك لا تهدى من أحببت » . . . فإن سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء فى كتاب الإتيقان ، فلا هداية ولا جدال ولا نهى عن أذى النبی بعد الوفاة .

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبى طالب لابن أخيه على الرغم من قرش خلائق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد بالجاء والكرامة ، وتبدو لنا

من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التي تجمع بين الطيبة والقوة . فإننا نعلم أنه كان ينقب سيد الأباطح ، وأنه كان يخرج للتجارة آنه بعد أخرى ، وأن أباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بني أمية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه في هذا ولاذاك ، ثم نعلم على كل هذا أن أبا طالب قد لقي ضنكا في شيخوخته وأن النبي قد أعانه بكفالة ابنه على وتربيته في داره ، ونعلم كذلك أن النبي لم يكن على حال من الوفرة قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته في ربح أموالها ، فصير ابن عبد المطلب وحفيده إلى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبئ عن نصيب الأسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين في البيت المعمور ، فأكبر الظن أنها كانت مغرما يأخذ من أموالهم ولم تكن مغرما يربحون منه الكثير أو القليل ، ولولا سعة التجارة التي عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل إن أحدهما سن لقريش سنة الرحلتين إلى الشام واليمن - لما وصل إليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين .

ولقد مر بنا من نجدة أبي طالب لابن أخيه ماتم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم ، ولكنها كانت في الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه ، فقد استجار به أبو سلمة صاحب بني مخزوم فأجاره وأعلن على الملأ جواره ، فثنى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا : ياأبا طالب ما هذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمدا فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : إنه استجارني وهو ابن اختي ، وإن أنا لم أمنع ابن اختي لم أمنع ابن أخي . فغضب أبو لهب في هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلا : يا معشر قريش ! والله لقد أكثرتم على

هذا الشيخ . ماتزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لتقومن معه في كل مقام فيه حتى يبلغ ماأراد . فخشي زعماء قريش مغبة الوفاق بين الأخوين في النجدة والجوار ، وكان أبو لهب معهم على رسول الله في دعوته ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره ياأبا عتبة ، انصرفوا راغمين .

وحكى عن هشام بن السائب الكلبي عن أبيه في رواية لانتبتها ولانتفيتها أن أبا طالب لما أحس الموت « جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يامعشر قريش ! . . إني أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين في قريش والصدیق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به . وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشتان ، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعايلكم العرب وأهل الوبر والأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه وأحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها . يامعشر قريش ! كونوا له ولالة ولحزبه حاة ، والله لايسلك أحد سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى . . . »

وهذه الوصية لايشتها القارئ لها على هذا الإسلوب إلا أن تكون لسان حال لا لسان مقال . وإلا أن يكون ماقيل بعض لفظها وبعض معناها ، ولم يكن كل ماجاء فيها .

العباس وحمزة

وعمان آخران غير أبي طالب كانت لها شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات ، وهما العباس وحمزة ، وكلاهما اخ لعبد الله غير شقيق .

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه ، وامتاز بين سادات قريش بالرأى والدهاء وطول الأناة ، وكان له علم بالأنساب وقدرة على تألف الناس ودفع العداوات ، مع هبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بني العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة الدهاء من كل رئيس مطاع في هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين .

وحمزة فارس في خلائق الفروسية كلها من شجاعة وصدق وإيمان ودراية بالسيف والخيال . قال ابن إسحاق في قصة إسلامه : « فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة - مولاة عبد الله بن جدعان - قالت له : يا أبا عمارة . لو رأيت مالتى ابن أخيك محمد آتفا من أبي الحكم بن هشام ! . وجده هاهنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل

المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضر به فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أنتشمة ؟ فأنا على دينه أقول مايقول ، فرد ذلك على أن استطعت فقامت رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عماره . فإني والله قد سببت محمدا ابن أخيه سبا قبيحا . . . »

قال القوم : مانراك بأحمزة إلا قد صبأت .

فقال حمزة : وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك . . أنا أشهد أنه رسول الله .

ومن أعلام رسول الله غير حمزة والعباس رجلان لم يسلما وهما الزبير وعبد العزى أبو لهب ، وكلاهما كان يحتن بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه ، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والنجاة ، ووهب له أبو لهب جاريته ثوبه ترضعه وتخدمه في طفولته ، ولانعرف من أخبار الزبير ماينبئ عن صفاته وكفائاته ، وأما أبو لهب فالمعروف عنه - ولأسما في علاقاته بابن أخيه بعد الدعوة - غير قليل .

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا في نصرة النبي من آمن منهم به ومن لم يؤمن ماعدا أبا لهب وبنيه ، وفيه نزلت الآيات : « تبّت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد »

وتعليل هذا الشذوذ أنه من لوازم الأسر الكبيرة التي لانشذ منها أسرة ذات خطر في التاريخ ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الأمور ، كان

من علله أنه يدعى بعبد العزى يتعصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه أن عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم .

وكان من علله أنفة الكبير أن ينقاد للصغير ، ولانسنس أنها أنفة لاستغرب في عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص ، ومن استغريها فليذكر أن العباس وحمة - عمى الرسول اللذين أسلم - كانا من لداته عليه السلام إلا سنوات ثلاثا أو أربعاً تقدم بها العباس فكان لها أثرها في تأخير إسلامه سنوات

وكان من علل ذلك الشذوذ أنه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قرش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للننى في مجمع الأسرة : هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من اخذك ، فحسبك بنو أبيك وإن أقت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قرش وتمدهم العرب . فإ رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جثهم به .

وفى مجلس آخر قال له أبو طالب : هؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ماتحب ، فامض لما أمرت . فوالله لأزال أحوطك وأمنعك . غير أن نفسى لاتطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

قال أبو لهب : هذه والله السوأة . خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم . : . وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسما : والله لنمنعنه مابقينا .

وهذا هو الهوى الذى يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة

والحيطة ، فيزعم أنه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويحجبهم مالا يطيقونه من جهاد العرب ، وإنه في طويته ليأنف أن ينقاد لمن هو أصغر منه ، ويخشى ما يصيبه من جراء انقياده لو سلسلت له كبرياؤه .

وليس من العلل التي تنسى في هذا المقام أنه كان زوجا لأخت أبي سفيان ، وأن ولديه كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمة رسول الله . وبين الزوجتين والزوجة إحن لا تهدأ ولا تزال تتحين الفرصة للوقعة والفرقة والعداء .

وأيا كان ما كان من أبي لهب فهو الشذوذ الذي يستغرب ألا يكون وليس بالغريب أن يكون !

وأشهر أبناء الأسرة من غير الأعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية على بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وصفاته وكفاياته تأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب : شجاعه وطيبه وفهم وإقبال على المعرفة وإثارة للمعروف .

أسرة لا تخرج النبوة وما خرجت قط من خير منها .

ونشأة النبي عليه السلام فيها أصدق المقدمات التي قلنا إنها مقدمات التمهيد والتحضير .

إلا أنها كسائر المقدمات التي مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر .

أسرة عزيزة الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر . وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة . ثم ينشأ لها من بينها نبي

ينعى على الآباء والأجداد ماكانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الأبناء أن
يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم ، ويقول لهم كما قال إبراهيم :
« لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »

ويهب بمن آمن منهم : « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم
وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان »

ويدعوهم أن يتبعوا ماأنزل الله لأن آباءهم لايعقلون : « وإذا قيل
لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولوكان آباؤهم
لايعقلون شيئا ولايهتدون »

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ماتعطى الأسر بنينا .

ولكنه جاءها بالنبوة التى لايعطيها غير الله !

وكانت الأسرة تمهيدا له فيما ورث منها .

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تمهدا السماء .

والدا النبي عبدالله وآمنة

تلك هي الأسرة العامة التي شملت الأجداد والأعمام ، وللنبي صلوات الله عليه ، مع هذه الأسرة العامة ، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبد الله وآمنة .

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أنباء هذين الأبوين الشريفين ، ولكنه أعقب لنا مافيه الكفاية لبيان أثرهما النفساني في وجدان ولدهما العظيم . ندرت في أبواب العظماء أبوة كأبوة عبد الله بن عبد المطلب ، ونكاد نقول إنها مرت بغير نظير فيها وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل .

ففي لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التي فارقها عروسا وعن ولده الذي لم تره عيناه .

لكننا وجد هذا الفتي في الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الإلهية ، ثم يتركها في كلاءة تلك العناية لقدر لا تغني فيه عناية الآباء .

وفي تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأنكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها . فبقيت ذكراه خيبة أمل وحيرة لمن يحل الدعوة ويسجل إبراهيم .

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الحنية ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه إلى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد .
وحياة لاتشبع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبا سابغا وجمالا يفتن فيه الحس والخيال .
وهذا الذى صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبد الله حتى أودعها من الخواطر والأمانى ماتزدهم به أعمار طوال ، فما تمناه له المحزونون على صباه وتقواه يفيض فى جوانب سيرته حتى تمتلىء به مائة حياة .

قيل فى بعض ما قيل من هذه الخواطر والأمانى « إنه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الإبل لرؤيا رآها مر على امرأة كاهنة متهودة قد قرأت فى الكتب يقال لها فاطمة فقالت له حين نظرت إلى وجهه - وكان أحسن رجل فى قریش - لك مثل الإبل التى نخرت عنك وأبذل لك نفسى ، لما رأت فى وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبی الكريم ﷺ ، فأجابها بقوله :

أما الحرام فالملامات دونه والحل لا حل فاستبينه فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة من قریش نسبا وموضعا ، فحملت برسول الله ﷺ ، ثم خرج من عندها فر بالمرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لاتعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس . فقالت فارقك النور الذى كان معك

فليس لى بذلك اليوم حاجة . إنما أردت أن يكون النور فى فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء .»

وفى أسانيد ابن هدام أن عبد الله « إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ، ثم خرج عائدا إلى آمنة فمر بامرأته الأولى فدعته فلم يجها وعمد إلى آمنة فحملت بمحمد ﷺ ، ثم مر بامرأته تلك . . . فقالت له : مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت »

قال إسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوته رجاء أن تكون لى ، فأبى على ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله . . . » وجاء فى غير خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبد الله من آمنة ، وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجها لها لجاله وتحدث الناس بفدائه .

وفى كل هذه الأخبار قسط من الصحة لانهم لا نسوى بين رواية السير له وبين خلوها منه ، فإن مجيئه فى السير يثبت لنا معنى صادق الدلالة وإن يكن غير معناه المقصود : يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور ، ومن كان هذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ .

وأما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذى يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان . وفى

سورة سبأ عن سليمان بن داود عليها السلام : « فلما قضينا عليه الموت
مادهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته فلما خَرَّ تبينت الجن أن لو
كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين »

والقرآن الكريم يقول في غير موضع إنه لا يعلم الغيب إلا الله ، ويقول
بلسان النبی : ولا أعلم الغيب .

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر
النبوّة والرسالة ، والكاهنة التي تريد أن تحمل بنی لا يخطر لها أن تحمل به
سفاحا فيقول لها عبد الله :

أما الحرام فاللمات دونه والحل لا حل فاستبينه
وأما أن تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم
تأبى معاشرته بعد ذهابها - فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج .
فالقصة كلها ، وماشايها من القصص ، رغبة وزبد وزبدتها جمال
عبد الله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال في عنفوان صباه .

ولانكران لما كان عليه عبد الله من الوسامة والوضاعة وغضارة
الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا
منها ، فقد حفظت لنا رؤية العيان أنه كان وإخوته يطوفون بالكعبة مع
أيهم فيأخذون الأبصار ، ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو
معابة في الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشائون وطلاب
العيوب .

* * *

وفيا وصل إلينا من سيرته قصة غير تلك القصص لاقبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها ، لأنها تحتاج إلى افتنان في وصفها وتحتاج - مع الافتنان - إلى مصلحة مفروضة تدعو إلى اختلاقتها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق .

وتلك هي قصة النذر التي أوردناها في الكلام على الكعبة ، وهي تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبد الله .

وليس يكفي في معيار النقد التاريخي أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال إنها مخترعة ، فإن اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله في الزمن القديم وفي الزمن الحديث ، وإنما يظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو إلى الشك فيه ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرننا اضطرارا إلى نفيه على ثقة أو على ترجيح .

وهذه القصة بعينها ينبغي قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلي في اختراعها وإصاقتها بعبد المطلب وعبد الله ، فقد قيل إنها اخترعت لتصوير عبد الله أبي النبی في صورة الذبيح إسماعيل ، وقيل إنها لم تظهر في الجاهلية قبل البعثة الإسلامية .

فهل من مصلحة مسلم أن يخلق القصة ليقول إن جد النبی أوشك أن يذبح أباه قربانا للأصنام ؟

وهل من مصلحة جاهلي أن يبدع الافتنان في القصة وفي وسيلة الخلاص من الفداء لينكر على سدة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل في الوسيلة والاستخبار إلى كاهنة خيرية تفتي لهم في شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون إليها ؟

ولم هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله ؟ ومن الذى كان عنده من قدرة الافتنان فى القصص مثل هذه القدرة ثم خفى أمره ولم تأت منه أفئونة مثلها فى زمانها ؟

وهناك مسوغ آخر للظن ييدر إلى الذهن إذا كانت هذه القصة قد حدثت لاحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت إليه ، كما حدث كثيرا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين ، ولكن هذه القصة بذاتها لم ترد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبد الله ، وليست هى مما يوضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالإبل والتقري إلى كعبة تجمع الأصنام من هبل إلى نائلة إلى أساف . فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخص عبد الله باختراعها عليه ؟

إن لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها ، وتأليفها على هذا الافتنان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها ، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها إلى منتصف القرن الأول للهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند متصل : « أن ابن عباس سأله امرأة إنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسألت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال إنها لم يصيبها الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل ، وأخذ الناس بقول مروان »

والحق بين رفض القصة وقبولها أنه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها

ما يخالف مألوفاً من مألوفات زمانها . وقد كان نذر عبد المطلب طلباً عزيزاً من الإله يبذل له فديته ، وكان الوفاء من فضائله الماثورة وكان مع الوفاء بالنذر إيمان بسوء العقبي وحذر من أن يصيب الجزاء أبناء جميعا . فليس في هذا الوفاء خليقة تختلق لأنها فوق طاقة الانسان .

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبدالله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لأنه سلم حياته فدية لإخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب . ومن يفعل ذلك ينبئ عن إيمان قوى بالواجب وإقدام على الموت في ريعان الشباب ، وقد كان له أن يتحمل المعاذير فلا تعوزه الحيلة ، فكأى من رجل لا ينكر الدين ولا يبرق منه إذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجترأ على أوامره ونواهيه .

على أن الملاحظة التي تستوقف من أمر هذه الأسرة القوية المباركة أن أخبارها المتناثرة التي ترسل أرسالا في المناسبات المتفرقة أدل عليها من الأخبار التي تنتظم في مناسبة واحدة وتحتل مظنة الوضع والتأليف . ومهما تتناثر الأخبار عن أحوالها في الجاهلية تخلص بنا إلى خصلة ملحوظة في جميع هذه الأخبار وهي « النظام » الذي تتوخاه في معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود .

فن هنا كلمة ومن هناك خير ومن جوانب شتى أحاديث وروايات وكلها ينطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو هب نفسه - وهو الخارج على اجماع الأسرة - يأتي في مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير - أبو طالب - ما لم يتعوده

من الطاعة والتوقير ، ويحضر مجلس الأسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين يسمع من أخيه أنه ينصر محمدا ولا يستمع فيه للملامة بعيد أو قريب ، ثم ينصرف من المجلس وهو كظيم .

أما في سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صغار الأسرة في مجالس كبارها ، فإذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا في حضرته لا يبدؤون بالكلام إلا أن يدعوهم إليه . ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم إلى مجلس جده فيقصد إليه ويجلس إلى جواره ، وهم مع علمهم بإشفاق الجد عليه وتدليله إياه يستدعونه إليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقولون إشفاقا عليه .

ومن نظام الأسرة أن عبد الله خرج بعد زواجه مع أول قافلة حان موعدها ولم يتخلف عامه ذاك إلى عام قابل ، وهو يفرغ من عرسه الذي كان خليقا أن يطيله تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه في قصة النذر المشهور ، فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على أرجع الأقوال .

ولاشيء أشبه بالواقع المنظور في قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته ، فإن أباه - لا جرم - قد امتلأت نفسه زمنا يشبع الموت يطيف بولده الحبيب إليه ، فليس أقرب إلى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه والغبطة بدوام ودوام ذريته من بعده ، ولا سببا الدوام بعد النذر الذي كان مبعثه تعبير الشائنين بقلة الذرية وابتئاس الأب خوفا من انقطاع العقب مع ولد وحيد .

واختار الأب زوجة عبد الله من بنى زهرة احلاف بنى هاشم
والمطلب فى كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرق بنى زهرة نسبا
وأكرمها محتدا ومدره العشيرة كلها فى مجامع قريش ، وينتهى نسبه لآبيه
وأمه إلى عبد مناف ، وقد فخر رسول الله بانتسابه إلى هذه الأمومة
فقال : « أنا ابن العواتك من سليم » .

روى الإمام أبو نعم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة بعد إسناد
متصل : « أن عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من
اليهود . قال : فقال لى رجل من أهل الديور - يعنى أهل الكتاب -
يا عبد المطلب ! أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟ قال : نعم إذا لم يكن
عورة ، قال : ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ثم نظرى الآخر فقال :
أشهد أن فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة ، وأنا نجد ذلك فى بنى
زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى ! قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما
الشاغة ؟ قال الزوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فإذا رجعت فتزوج
فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة
فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت
وهب فولدت رسول الله ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة
فليج - أى فاز - وغلب عبد الله على أبيه » .

وهذا مثل من الأخبار التى لا تثبت على النظر وتنبى على حقيقة ثابتة
وهى اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب ، واتصال البيتين فى
الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما فى الحياة العامة ، ولم يأت هذا
الاتصال القديم بنبوة من ناسك فى اليمن تنكشف من النظر فى
منخرين .

انتقل عبد الله بعروسه من حى وهب إلى حى عبد المطلب بعد أيام العرس ، فلم يطل فيه البقاء إلا ريثما أذن مؤذن القافلة بالرحيل .

ولم يعد من رحلته تلك إلى داره . فإنها كانت الرحلة الأخيرة لكل راحل أو قاعد في هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض إلى جوف الصريح .

وولد النبی علیه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات ، فأرضعته أمه وأرضعته معها ثوية جارية عمه أبي هب ، ثم عهد به إلى حلیمة بنت ذؤبت تستم رضاعه في بادية قومها بنى سعد على سنة العلية من أشراف مكة ، ينتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا من أخطا مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات في مقبل الشباب ، ولكن أسرة أبيه وأسرة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد ، ثم أعادته إلى مكة قبل أن يبلغ الثالثة ، لأنها سمعت من ابنها أن أخاه القرشي قد صرع وهو معه ، وأن رجلين أخذهما فإذا هما يشقان بطنه ولا يزالان يسوطانه ، فلما ذهبت إليه حيث تركه ابنها وجدته قائما ممتقع الوجه ، فبادرت به إلى مكة مخافة عليه ، وطلبت إليها أمه أن تعود به إلى البادية تخشى على الطفل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذى خشيته الموضع الرؤوم ، بعدما سمعته من ابنها ورأته من امتقاع لون الوليد القرشي وقيامه منفردا في الحلاء ، فلما عادت به إلى البادية أتم رضاعه فيها ولبث معها إلى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بين بنى سعد ، فذاك فخره بعد النبوة إذ يعجب الصحابة من

فصاحته فلا يرى عليه السلام عجباً في فصاحة عربي نشأ في بني سعد
وتربى في الذؤابة من قريش .

* * *

ولم يكد الصبى يطمئن إلى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى
فقدها وهما في زيارة لقبر أبيه بالمدينة .

وما كان قد بقي في الدنيا للفتاة الأيم غير هذا الصبى وذكرى أبيه
الراحل في غربتين : غربه الموت وغربة المكان .

فخرجت به ضيفاً تزور الفقيد الراحل في مثواه وتحسبه مشوقاً تحت
طباق الأرض إلى رؤية الوليد الذي لم تبصره عيناه تحت شمس النهار .
وكذلك تزيّر الوليد اليتيم أباه .

فلما قضت حق الزيارة ولبثت في جيرة أحوال عبد الله شهراً أو بعض
شهر ، قفلت بوليدها راجعة إلى مكان ، فانت ودفت في الطريق .

وكل ما وعته السيرة من مرضها أنها وعكت من لفحة السموم فلم
تطل بها الوعكة غير أيام

* * *

ومن اليسير أن نعلم وقع هذه المفاجعة في نفس الصبى اليتيم ،
يتجدد له مصابه في أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه
مهجوراً في عرض الطريق .

إلا أن هذه المفاجعة بما تدل عليه أهم في دراستنا هذه مما خلقته في
نفس الصبى الصغير .

مصابه في أبيه ومصابه في أمه ، ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليها مصابه في جده الذي ضمه إليه بعد فقد أبويه .

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات في صباها لسحقها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش - أن عاشت بضرباتها - إلا كما يعيش الأشباح في ظلمات الحياة .

فاذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التي تلقاها الصبي فأول مانقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل إنها دلالة على القوة في مكمنها وعلى الروح العظيم الذي تجلّى بعد ذلك في تاريخ بني الإنسان ، كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب .

وتلى ذلك وفقتنا أمام العطف الذي أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق مادونها وتزرف منها كل عطف وأمل .

وقد خرج الصبي من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التي تشمل العالمين : عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس إليه في عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم .

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التي دان لها هذا العالم المشهود .

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الأحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحي والميت ، ولا ينتقل فيه الخلق في دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين .

وقليل فى جنب هذا فائدة العطف الذى عهدناه من صباه إلى ختام حياته يحيط به كل إنسان وكل حى وكل شىء . وإنما يترجم عنه عطفه على حاضنته وعلى مرضعته وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذى لم يحرمه أحد قط من صاحب أو صديق .

* * *

ولاندع الكلام على الأسرة النبوية وفى الخاطر سؤال توحى إلينا أن نسأله وأن نجيب عنه ما أستطيع الجواب .

لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت فى هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال ، إن لم يكن من مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب .

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟

إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان .

وقد سأل أناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل إليهم أنهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه ، وأيسرها أنه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاق عرق كحب الجمان .

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع لايعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لايعاوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين .

وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين في حال واحدة حين يتلقى
الوحي ، ثم لا يصاب به مرة في غير تلك الحال .

ولكنه ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها في
غاشية الوحي كأنها ما كان قوام البدن الذي تغشاه .

ولا نعلم أن أحداً من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد عليه
السلام في كل لحظة من لحاته وفي كل حركة من حركاته ، وفي يقظته
ورقاده ، وفي حديثه وصمته ، وفي جلوسه ومسيره ، وفي ركوبه
وارتجاله ، فلم تكن له صفة قط في كل أولئك غير صفة البنية السوية
والخلق القويم .

كان باتفاق جميع واصفيه فوق المربع بعيد ما بين المنكبين ، غزير
الشعر تلمس جمته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ضخم
الكراديس - أى ملتقى العظام ، ولم يكن بالمطهم ولا بالملكثم ، أدعج
العينين أهدب الأشفار ، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صلب ، ذريع
الخطوة سائل الأطراف^(١) .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف
منطق النبي بشيء ينم على اضطراب في عصب أو في عضل أو ينبئ عن
عرض من الأعراض غير سلم أو قويم : كان ضليع الفم ، يتكلم بكلام
بين فضل مفسر ، إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها ، وإذا
تحدث اتصل بها - أى صحب كلامه بما يوافقه من حركاتها - وإذا
(١) المطهم المتنفخ الوجه والملكثم المدور ، والأهدب طويل أهداب العين مع
انعطاف .

غضب أعرض وأشاح واذا فرح غص طرفه ، جل ضحكه التبسم ،
ليس بصخب ولا يرتفع له صوت في غير دعاء .

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدراً جمعها ابو عيسى
الترمذى صاحب الشئائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه في
عرض من أعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هي كلها تأكيد
للمنطق السليم والخلق القويم .

* * *

الله اعلم حيث يجعل رسالته .

وقد جعلت رسالة محمد حيث ينبغي أن تكون - خلقاً وخلقاً - من
ميراث الزمن وميراث الأجداد والآباء ، فكل خلق وصف به فهو
الصالح لأداء رسالته والنهوض بأمانته . إن تكن ضريبة من ضرائب
العظمة الكبرى - ولابد لها من ضريبة - فتلك هي النقص في نسله
ليستوفي التمام من أمر هذه الذرية الباقية إلى يومنا ، وبعد يومنا ، جامعة
واعية لكل تابع من تابعيه ، وكل مولود له في عالم الضمير من بنيه وغير
بنيه .

وإنه لعلی خلق عظیم .

وإنه لعلی خلق قويم .

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الأسرة ، قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لتأتى الرسالة بعدها فتثور عليها وتنكث غزلها ، وتعيدها على العالم الإنسانى فى نسج جديد .

يتم فى غير ذلة .

عزيز فى غير قسوة .

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الاريحية من يقين بنى هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية فى أقواها وأمنعها ولكنه يقودها إلى عصبية واحدة تضم إليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين .

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف فى صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه ليس بالجائز أن تعلمه كيف ينكر أخطاءها ويقوم التواءها ويرتقى بها من أوشاب الشرك إلى صفاء التوحيد : مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها إلى غير تلك الطريق .

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان : تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الأزلية ، وحيث ينفض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هى بإرادة إنسان ولكنها إرادة الله ، وما هى بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق ، يوليها من يشاء حيث شاء .

فهرس

صفحة	
٣	مقدمة المقدمات
٧	الطوالع والنبوءات
٣٣	الاحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية
٤١	الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية
٨٢	النبوة المحمدية
٩٩	سيد الانبياء
١٢٠	دين الانسانية
١٣٠	الكعبة
١٤٠	أسرة النبي
١٦٣	والدا النبي عبد الله وآمنة
١٧٨	نتيجة النتائج

رقم الإيداع : ٨٠/٣٩٥٦

الترقيم الدولي : ٣ - ٢١٢ - ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN

مطبوعة نفوثة مصر

مطبعة نفیسه